

# نفوذ العلمانية في نواحي الحياة

• سُنَّةُ اللَّهِ فِي الصَّرَاحِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ :

جرت سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى الاجْتِمَاعِيَّةُ أَنْ يَحْنُدِمَ الصَّرَاحَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ ، وَإِنَّمَا يَشِيرُ هَذَا الصَّرَاحُ الْمَعْتَقَدَاتِ الَّتِي يَدِينُ بِهَا النَّاسُ ، وَالِاتِّجَاهَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تُوَجَّهُ سَلُوكُهُمْ ، وَيَسْتَوْحُونَ مِنْهَا مَفَاهِيمَهُمْ عَنِ الْحَيَاةِ .

وهذه السُّنَّةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ بَدَأَتْ وَسَايَرَتْ الْحَيَاةَ الْبَشَرِيَّةَ فِي عَصُورِ التَّارِيخِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فِي تَبَايِنِ الْمَعْتَقَدَاتِ ، وَاخْتِلَافِ الْأَفْكَارِ ، وَمَا يَتَرْتَبُ عَلَى هَذَا مِنْ انْتِصَارِ كُلِّ لِمَعْتَقَدِهِ وَفِكْرِهِ ، وَلِذَا كَانَتْ مَشْرُوعِيَّةَ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْحِمَايَةَ الْإِيمَانِ وَالْحَقِّ وَالْهُدَى ، وَدَرَاءَ الْفَسَادِ وَالشَّرِّ ﴿ وَكُلُّ مَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ (١) .

وقد تميَّزَ هذا الصَّرَاحُ الْعَقْدِيُّ الْفِكْرِيُّ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ بِالتَّفَنُّنِ فِي أُسَالِيْبِهِ وَوَسَائِلِهِ ، وَكَثْرَةِ شُعْبِهِ وَمَذَاهِبِهِ ، وَسُرَى تَبَايُنِهِ مِنْ بِلْدٍ لِآخَرَ ، يَمْهَدُ الطَّرِيقَ لِلسَّيْطَرَةِ وَالنَّفُوذِ ، وَاسْتِغْلَالِ الْمَوَارِدِ ، وَإِنْ لَمْ يَعلَنِ حَرْباً ضَرْوَساً ، تَحْصَدُ النَّاسَ ، وَتَدْمِرُ الْعَامِرَ .

والْحَرْبُ الْعَقْدِيَّةُ الْفِكْرِيَّةُ أَشَدُّ ضَرَاوَةً مِنَ الْحَرْبِ الْعَسْكَرِيَّةِ ، لِأَنَّهَا تَسْلُبُ النُّفُوسَ ، وَتَقْضِي عَلَى الْأَرْوَاحِ ، وَتَهْدِمُ الْقِيَمَ وَالْأَخْلَاقَ ، وَتَحَوَّلُ الْحَيَاةَ الْإِنْسَانِيَّةَ إِلَى جَحِيمٍ لَا يُطَاقُ .

(١) البقرة : ٢٥١

ومهما تعددت التيارات الفكرية الحديثة المعادية للإسلام ، فإنها تنتمي إلى اتجاهين اثنين :

١ - اتجاه يرتدى ثوب العلم ، يتمثل فى الحضارة الغربية وحملاتها ضد الإسلام ، ودعوة المسلمين الى أن يواكبوا ركب هذه الحضارة بمفاهيم جديدة ، حتى يخرجوا من هذا الركود الذى يعيشونه ، ويوشك أن يُفضى بهم إلى الفناء المحقق .

٢ - واتجاه مادى إلحادى يتمثل فى الماركسية ، التى تتنكر للأديان ، وتدعو إلى الملكية الجماعية ، وتداعب أحلام الشعوب الفقيرة ، والطبقة الكادحة برخاء العيش ، وبلهنية الحياة .

وكلاً الاتجاهين فكر يخفى وراءه أهدافاً استعمارية ، ومطامع دولية ، وهو ما يشمله المصطلح العام للاستعمار الغربى .

ونشأت بداية الصراع الفكرى بين الإسلام وخصومه عندما اتصل الغرب المسيحى بالشرق الإسلامى اتصال اعتداء مسلح طوال قرنين من الزمان ، من نهاية القرن الحادى عشر إلى آخر القرن الثالث عشر الميلادى (١) ، وهو اعتداء الحروب الصليبية .

والحروب الصليبية هى سلسلة حروب شنها المسيحيون الأوربيون لاستعادة الأراضى المقدسة ، وبخاصة بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وقد قلم صلاح الدين الأيوبي أظافرهم ، وألحق بهم الهزيمة ، وانتهى أمرهم بالفشل والخيبة .

وحيث أدرك الغرب فى الحروب الصليبية ضعف المجتمع الإسلامى ، وما يحتويه من ثروات ضخمة متعددة المصادر ، فإنه أخذ يخطط لاستغلال هذه

---

(١) كانت الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ م من الفرنسيين والألمان ، يقودها بطرس الناسك وآخرون .

الحالة فى الاتصال الاقتصادى بالبلاد الإسلامية ، لكشف موارد ثروتها ، واستثمارها لصالح الغرب ، وصاحبَ هذا نفوذ سياسى تدرج حتى وصل منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين منتهى ما يصل إليه نفوذ قوى على ضعيف ، وأخذ هذا النفوذ الغربى يعمل على :

١ - اتخاذ الوسائل الممكنة لتستمر سيطرته على المسلمين .

٢ - الحرص على أن يظل المسلمون متخلفين .

٣ - التنفيس عن الحقد الصليبي وعدائه للإسلام ، باتباع الوسائل والأساليب التى تُخرج المسلمين من دينهم ، وإن لم يعلنوا ردّتهم .

وحتى يحقق النفوذ الغربى أهدافه عمد إلى تشويه الإسلام ، والاستهانة بترائه ، واتخذ من المقارنة بين الغرب الصليبي والشرق الإسلامى من تقدم الأول وتأخر الثانى وسيلة لذلك ، ووقر فى أذهان بعض الناس أن المسيحية دين المتقدمين ، وأن الإسلام دين المتخلفين .

نشأ من ذلك أن قام بعض المسلمين ينادى باتباع الغرب فيما وصل إليه من حضارة صناعية وعلوم طبيعية ونظام اجتماعى ، بل زعم بعضهم أن هذا لا يكون إلا بالتقريب بين المسيحية والإسلام ، ودعا نفر غير قليل فى أنحاء العالم الإسلامى إلى تحديث الإسلام بموجات التغريب العارمة .

وفى مقابل هذا كان هناك تيار إسلامى أصيل ، يقاوم اتجاه التغريب ، ويدعو إلى احتفاظ المسلمين بشخصيتهم فى ضوء القرآن والسنة ، ويُجلى صفاء العقيدة الإسلامية ، ويُقوّم ما اعوججَ من حياة الناس . ويعيد إليهم الثقة فى صلاحية الشريعة الغراء لكل عصر ، وبدأت نواة هذا التيار الإسلامى بحركة المجدد المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب ( ١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ) .

وبانتهاء القرن التاسع عشر تبلور هذان الاتجاهان فى العالم الإسلامى ، وظل هذا قائماً فى القرن العشرين :

١ - اتجاه التجديد فى خدمة الاستعمار الغربى ، وهذا الاتجاه ثَمَّاه حركة التنصير « التبشير » والاستشراق ، ثم تبعه الإلحاد المادى الغربى فى الفكر الماركسى ، وكانت مناهج التعليم ووسائل الإعلام طريقاً ميسراً لنشر أفكاره ، وكانت البعثات التعليمية التى تعود من ديار الغرب ساعداً قوياً له ، حيث تتولى المناصب القيادية ، فى الجامعات والمؤسسات الموجهة للأمة ، وفى السلطة التنفيذية التى تحكم البلاد .

٢ - اتجاه الإصلاح الذى يدعو إلى تجديد المفاهيم الإسلامية والخروج بها عن الجمود الذى أصابها ، وإقامة الحياة فى شتى شعبها على الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ومنهجاً متكاملأ لبناء الأمة الحضارية فى العصر الحديث .

ويتمثل هذا الاتجاه فى حركة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده - مع ما وجه إليهما من نقد يدعو إلى التحفظ - ثم فى حركة عبد الحميد بن باديس ، وحسن البنا ، وأبى الأعلى المودودى .

وقد تصدَّى هذا الاتجاه لما أثارته حركة التجديد الغربى من شبه وقضايا ، لتوهين الإسلام فى نفوس أبنائه ، وفقدان الثقة فى صلاحيته لاستيعاب الحضارة الحديثة ، علمانية كانت أو ماركسية .

\*\*\*

#### ● التعريف بالعلمانية :

والعلمانية مصدر صناعى منسوب إلى العلم ، زادت فيه الألف والنون على غير قياس فى اللُّغة العربية ، والأصل أن يُقتصر فى ذلك على السماع ، ثم شاع هذا الاستعمال عند المتأخرين ، كقولهم : جسمانى ، وروحانى ، ونورانى ،

ومعناها فى اللُّغة : النسبة إلى العلم . هذا من حيث الاشتقاق اللُّغوى حسب النطق الشائع لها « العلمانية » - بكسر العين ، ولكن حقيقة معناها لا تتصل بالعلم ، وإنما تعنى الدنيوية أو اللادينية ويتضح هذا من معناها اصطلاحاً ، ولعل العلمانيين أرادوا أن يجعلوا النسبة إلى العلم باعتبار أن ظهور العلمانية كان انتصاراً للعلم على السلطان الكنىسى .

والعلمانية اصطلاحاً : تُطلق على كل ما لا صلة له بالدين ، وبهذا جاء تعريفها فى دوائر المعارف والمعاجم الأجنبية ، وفى دائرة المعارف البريطانية : «هى حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها ، ذلك أنه كان لدى الناس فى العصور الوسطى رغبة شديدة فى العزوف عن الدنيا والتأمل فى الله واليوم الآخر ، ومن أجل مقاومة هذه الرغبة طفقت العلمانية تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية ، حيث بدأ الناس فى عصر النهضة يُظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية البشرية ، وبإمكانية تحقيق طموحاتهم فى هذه الحياة القريبة ، وظل الاتجاه إلى العلمانية يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله ، باعتبارها حركة مضادة للدين ، ومضادة للمسيحية » (١) .

وتُعرفها المعاجم الأجنبية بألفاظ متقاربة : الروح الدنيوية ، أو الاتجاهات الدنيوية ، أو المادية .

والتعبير الشائع فى الكتب الإسلامية المعاصرة هو : « فصل الدين عن الدولة » وهو فى الحقيقة لا يعطى المدلول الكامل للعلمانية فيما يتصل بسلوك الأفراد ، ولو قيل : إنها فصل الدين عن الحياة ، لكان أصوب ، ولذلك فإن

---

(١) انظر كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » محمد قطب ، ص ٤٤٥ - ط . دار الشروق .

المدلول الصحيح للعلمانية هو : إقامة الحياة على غير الدين ، سواء بالنسبة للدولة أو للفرد « (١) .

والشأن في المسيحية أنها دين ، يتحاكم قومه إليه في شؤون حياتهم ، ولكن الكنيسة تنزلت عن هذا المفهوم حين اعتنق الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول ( ٢٨٨ - ٣٣٧ م ) النصرانية بعد أن كان وثنياً يضطهد النصارى ، ودعا سنة ٣٢٥ م إلى مجمع نيقية المشهور ، وأعلن على إثره أن المسيحية عقيدة رسمية للإمبراطورية الرومانية ، فرأت الكنيسة أن تقرب منه بما يرضيه ، ففصلت بين العقيدة والشريعة ، أو بين الدين والدولة ، وقسّمت الحياة البَشَريّة إلى دائرتين : الأولى « دينية » من اختصاص الله ، ويقتصر محتواها على الرهبنة والمواعظ ، والأخرى « دنيوية » من اختصاص قيصر وقانونه ، وتشمل التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلاقات الدولية ونُظم الحياة العامة .

وعذر الكنيسة في ذلك أن الإمبراطورية الرومانية الوثنية كانت مغرقة في المذات الجسدية ، وفي عدائها للمسيحية ، وقد سرها تحول قسطنطين إليها ، فرأت تحقيقاً للوفاق أن تتغاضى عن اعتبار المسيحية شريعة حاكمة ، وقسّمت الحياة تلك القسمة الضيزى : دينية للكنيسة ، ودنيوية لقيصر ، فجعلت قيصر شريكاً لله في ملكه .

\*\*\*

● ما نُسبَ إلى المسيح :

وتعللت الكنيسة بنصين منسوين للمسيح :

أحدهما : « أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .

والثاني : « مملكتي ليست من هذا العالم » .

---

(١) انظر كتاب « العلمانية ، نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة » سفر بن

عبد الرحمن الحوالي ، ص ٢١ وما بعدها - دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع .

أما النص الأول فلم يثبت عن المسيح ، ولكنه من إضافات الكنيسة ، فيما أدخلته على الأناجيل من تحريف ، ولا يتأتى لرسول بعثه الله بعقيدة التوحيد التي بُعثَ بها رُسل الله جميعاً أن يقول هذا القول الذي ينافي توحيد الألوهية في وجوب طاعة الله والانتقياد لشرعه ، فكيف يتخلى المسيح عليه السلام عن إقامة شريعة الله في واقع الحياة ، ويقر أحكام الطاغوت ؟

ولو فرضنا جدلاً أن المسيح تفوه بهذه العبارة فإن سياق الكلام الذي وردت فيه لا يعطى هذا المفهوم الذي فهمته الكنيسة .

لقد رُوِيَ أن طائفة من اليهود استدرجت المسيح للإيقاع به عند قيصر ، فسألته : أيجوز أن تُعطى جزية لقيصر أم لا ؟ وكان المسيح وأتباعه قلة مضطهدة ليس في مملكتهم أن تواجه الإمبراطورية الرومانية الطاغية بعداء سافر في طور الدرسة آنذاك ، فقرر النشأة ، حتى لا يبطش بها عدوها في مهدها - كما كانت مرحلة العهد المكى في سيرة رسولنا ﷺ إلى أن أذن الله له بالجهاد - فأجابهم المسيح عن سؤالهم ، وقال لهم : أروني معاملة الجزية ، فقدموا له ديناراً ، فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا له : لقيصر ، فقال لهم : « أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » . ولم يكن في استطاعة المسيح والقلة المسلمة معه رفض دفع الجزية للجبابرة الروماني في هذه المرحلة من مراحل الدعوة ، ولو كانت لدى المسيح قوة لتقاوم الظلم وما اعترف لقيصر بهذا الحق .

أما النص الثاني : « مملكتي ليست من هذا العالم » فقد فهمته الكنيسة فهماً خاطئاً ، وقالت : إن الدنيا والآخرة ضدان لا يجتمعان ، فالدنيا مملكة الشيطان ، ومحط الشرور والآثام ، يتحكم فيها السلاطين كما يشاؤون ، ويستمتعون بالحياة الدنيا حتى يأتي يوم الحساب والجزاء ، أما المسيحي الذي يبتغي مرضاة الله وثوابه فعليه الخلاص من المملكة الشيطانية ، والاهتمام بالمملكة الباقية الخالدة ، مملكة الآخرة .

والقصة التي تُروى في الأناجيل لا تدل على هذا الفهم ، إذ رُوِيَ أن اليهود كادوا للمسيح لدى الحاكم الروماني في مقاطعة « يهوذا » واتهموا بأنه يدعى أنه ملك على اليهود ، ويهدف إلى استقلال أُمته عن الاستعمار الروماني والتبعية لقبصر ، وتروى القصة في إنجيل يوحنا أن المسيح عليه السلام قال أثناء التحقيق معه : « مملكتي ليست من هذا العالم » وهو يعنى أنه ليس ملكاً من ملوك الدنيا على طراز قبصر وكيسرى ، ولا ينفي هذا الملك الذي يقوم على شريعة الله » (١) .



### ● انحراف رجال الدين المسيحي :

يقوم على أمر الدين رجاله المختصون لحفظه وحمايته وإعطاء صورة صادقة عنه ، ولكن حَمَلَة هذه الأمانة من الأبحار والرهبان افتتن كثير منهم بالدنيا ، واشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ، واستغلوا مكانتهم الدينية ، ففرضوا على الناس حقوقاً ما أنزل الله بها من سلطان ، وهؤلاء هم الذين سموا برجال الدين .

عُرِفَ هذا في أبحار اليهود ، ثم حذا حذوهم القسس والرهبان من النصارى ، فأغرتهم الدنيا ، واستعبدوا أتباعهم ، وكونوا لأنفسهم سلطة هرمية متدرجة ، تبدأ قاعدتها بالرهبان ، ويجلس على قممها البابا ، وحيث فصل الدين عن الدولة في الإمبراطورية الرومانية بعد اعتناقها للمسيحية فقد كانت المصلحة المشتركة تقتضى أن ترعى الإمبراطورية هذا السلطان الكنسى الذى لا يعارض فى وجودها ، ويترك لها شؤون الحياة .

ابتدع رجال الدين هؤلاء مبدأ « التوسط بين الله والخلق » فالمذنب لا يتجه بتوبته إلى الله ، وإنما يتجه إلى رجل الدين معترفاً بذنبه ، حتى يتوسط لدى الله فيغفر له ، وبذا نَصَبَ رجال الدين أنفسهم أنداداً لله ، وأوقعوا أتباعهم فى

(١) انظر المرجع السابق ص ٦٥ وما بعدها .

الشرك الأكبر ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (١) ، وكان من أثر ذلك مهزلة صكوك الغفران ، فأصبح رجال الكنيسة يعرضون الجنة للبيع ، ويكتبون وثائق للمشتريين ، تتعهد فيها الكنيسة بأن تضمن للمشتري غُفران ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، وبراءته من كل جرم وخطيئة سابقة ولاحقة ، والذين لا يشترون هذا الصِّك يظلون محرومين من استحقاق نعيم الجنة مهما بلغت تقواهم وعظم حبههم للمسيح ، وتعلقهم بالعدراء .

وقد أثرت الكنيسة ثراءً فاحشاً من بيع الصكوك ، حتى أصبحت أغنى طبقات المجتمع الأوروبي ، لا ينازعها في ذلك سوى طبقة النبلاء الأشراف من أصحاب الإقطاع .

واتخذ الناس هذا المبدأ « التوسط بين الله والخلق » فيما بعد سلاحاً ضد الأديان بعامة ، والمسيحية بخاصة .

والعبادة تعنى في مفهومها أن يُدْعن العبد لله إذعاناً كاملاً في تصرفاته وأفعاله الاختيارية في ذلة وخضوع ، وهى كما عرفها شيخ الاسلام ابن تيمية : « اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة » .

وأباح الله لعباده الطيبات من الرزق مع الحفاظ على الغاية فى قصد العبادة ، ولكن الكنيسة غلت فى مفهوم العبادة والطاعة ، واتخذت من عقيدة الخطيئة وسيلة للخوف الشديد من بأس الله وعقابه ، وما يستدعيه ذلك من الإعراض عن الدنيا إعراضاً كاملاً ، فابتدعت الرهبانية التى قال الله تعالى فيها : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ، وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) .

(١) التوبة : ٣١

(٢) الحديد : ٢٧ ، والرهبانية مصدر صناعى منسوب إلى الرهبة - بزيادة الألف والنون - على

غير قياس .

وموجز عقيدة الخطيئة عند النصارى فى تعاليم المسيحية المحرّفة ، أن آدم عليه السلام أكل من الشجرة « شجرة المعرفة » فعاقبه الله بالطرد من الجنة ، وأسكنه الأرض ، وظل الجنس البشرى يرسف فى أغلال تلك الخطيئة أحقاباً متطاولة ، حتى أنزل الله ابنه ( تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ) ليُصلب فداءً للنوع الإنسانى ، وليبين للناس طريق الخلاص من هذه الخطيئة ، فأصبح لزاماً على الإنسان أن يحتقر الدنيا ، ويحرم نفسه مما فيها ، حتى يهلكها طلباً للخلاص .

يقول إنجيل لوقا : « مَنْ طلب أن يُخَلِّص نفسه يُهلكها ، وَمَنْ أهلكها يُحييها » (١) وتقتضى هذه الرهبانية العزوبة ، والتجرد الكامل عن الدنيا ، والعبادة المتواصلة .

وقد كان لهذه الرهبانية عواقب وخيمة ، إذ انخرط فى سلك الرهبانية الفُسّاق ، فلما خسروا حياة الرهبنة بأبشع صور الدعارة والفساد ، وأصبحت الأديرة مباءة للذئور ، وتزعزعت فى نفوس الناس القيم الأخلاقية والدينية ، وفقدوا ثقتهم فى الدين ، ثم دبَّ الضعف إلى الكنيسة ، وتقلَّص سلطانها .

انتكست الكنيسة ، وتخلت عن تعاليم المسيح فيما تدعو إليه من تسامح : « مَنْ لطمك على خدك الأيمن فأدر له الآخر أيضاً ، وَمَنْ أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، وَمَنْ سخرُك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين » (٢) ، وتحولت إلى سلطان قاهر رهيب فى تنظيم هرمى يبدأ بالراهب وينتهى بسلطة البابا الأكبر فى روما ، وأضفت الكنيسة على رجالها ثوب القداسة ، وادعت لنفسها حقوقاً لا يملكها إلا الله ، مثل حق الغفران ، وحق الحرمان ، وليس لأحد

(٢) إنجيل متى ٥ : ٤٠ ، ٤١

(١) إنجيل لوقا ١٧ : ٢٤

سواها أن يشرح الكتب المقدسة ، ومَن توسوس له نفسه أن يخالف الكنيسة فإنه يُساق إلى سناكم التفتيش ، ليجد جزاءه فى السجن والتعذيب والقتل .

وكما أسهمت الكنيسة فى طمس الدين وتعطيل شريعته فإنها فرضت نفسها وصيةً على الملوك والأمراء ، وأرغمتهم على الخضوع المذل لها ، وجعلت معيار صلاحهم للحكم ما يقدمونه لها من مراسم الطاعة حتى يدخلوا ملكوت الله .

واستغلت الكنيسة نفوذها فى امتلاك الأراضى والقصور ، وأرهقت الناس بالرسوم والهبات والعطايا حتى أصبحت مثلاً سيئاً للشراء الفاحش .

❖ ❖ ❖

### • الصراع بين الكنيسة والعلم :

يُعد الصراع بين الدين والعلم المشكلة الرئيسية فى تاريخ الفكر الأوروبى منذ عصر النهضة إلى عصرنا الحاضر (١) ، وهو فى حقيقته صراع بين الكنيسة والعلم ، وليس بين الدين والعلم ، حيث حرقت الكنيسة المسيحية على النحو الذى أسلفنا من قبل ، وهيمنت على المعتقدات والأفكار ، وجعلت ذلك عقائد إنهيية .

فلما ظهر العلماء الغربيون بنظرياتهم فى الفلك والرياضيات والطبيعية وقالوا بدوران الأرض والكواكب حول الشمس ، وخرجوا بذلك على السلطان الكنسى ، تصدت لهم الكنيسة ، وزجت بهم فى السجون ، وقدمتهم إلى محاكم التفتيش التى حكمت على بعضهم بالإعدام حرقاً .

وام يمكن هذا الصدام ليحول دون متابعة العلماء لأبحاثهم ، ولكنهم حاولوا فى البداية أن يُفرقوا بين المجال العقلى فى الفكر والحياة والمجال الدينى فى

---

(١) عصر النهضة : مصطلح يُطلق على التيارات الثقافية والفكرية التى بدأت فى إيطاليا فى القرن الرابع عشر ، وبلغت أوج ازدهارها فى القرنين : الخامس عشر والسادس عشر ، ومن إيطاليا انتشرت النهضة إلى فرنسا وأسبانيا وألمانيا وإنجلترا وسائر أنحاء أوروبا .

العقيدة والعبادة ، وقالوا : إن ميدان العلم الطبيعية ، وميدان الدين مصير النفس  
فى الدار الآخرة .

كثرت النظريات الحديثة فيما وصل إليه البحث فى الكون والطبيعة ، ولا سيما  
بعد ظهور نظرية الجاذبية لإسحاق نيوتن ( ١٦٤٢ - ١٧٢٧ ) وتصاعد  
الصراع مع الكنيسة ، وبدأ الهجوم على الدين نفسه وإنكار الوحي ، رغبة فى  
الانفكاك من ربة الكنيسة والتحرر من عبوديتها ، وصار الطريق ممهداً للثورة  
الفرنسية .

❖ ❖ ❖

### ❖ الثورة الفرنسية :

قامت الثورة الفرنسية تحت ضغط تلك العوامل كلها حتى تتخلص من المظالم  
الفادحة التى توارثتها أوروبا منذ العصور الوسطى (١) ، ومن طغيان الكنيسة  
وتنكيدها بالعلماء وتحالفها مع السلطة لاقتسام المصالح المشتركة ، قامت هذه  
الثورة تحمل روح النعمة على الدين ، والسخط على الكنيسة ، والتمرد على  
نظام الحكم الفاسد ، والانتقام من المستبدين ، فهبت الجماهير هبوب الريح  
العاصف ، وهجمت على سجن الباستيل الذى ذاق العلماء ودعاة الحرية فيه  
ألواناً من العذاب الوحشى ، وهدمته ، وأطلقت سراح نزلاته ، فى ١٤ يوليو  
سنة ١٧٨٩ ، وكان هذا الحادث البداية الحقيقية للثورة الفرنسية ، وهتف الرعاى  
وراء قواد الثورة (٢) ، بشعارها : الحرية والمساواة والإخاء ، لتسقط الرجعية ،  
والرجعية عندهم تعنى الدين ، فهى شعارات يُقصد بها تحطيم القيود الأخلاقية ،

(١) العصور الوسطى ، وتدعى بالعصور المظلمة ، مصطلح يُطلق على فترة الركود الدينى  
والسلبى والنظام الاجتماعى والنظام الإقطاعى الفاض الذى ساد العالم الأوروبى منذ سقوط  
الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ م ، وانتهى منتصف القرن الخامس عشر ، أو باكتشاف  
كولومبس لأمريكا عام ١٤٩٢ م حيث بدأت المعرفة وكان الإصلاح .

(٢) كان على رأسهم « ميرابو » ( ١٧٤٩ - ١٧٩١ ) .

وكسر الحواجز التى أقامتها الطبقيّة ، واعتبار الدين مرادفاً للظلم والرجعيّة والتخلف والاستبداد فالفكاك منه فكاك من غل الاستعباد .

وتوالى الثورات بعد الثورة الفرنسيّة فى أوروبا ، ترفع هذه الشعارات باسم « حقوق الإنسان » وكان هذا يعنى فى البداية انهيار النظام الإقطاعى ، وانهيار نفوذ الكنيسة ، ولكنه انتهى باعتبار الدين والأخلاق ماضياً مندثراً بغيضاً عدواً للحضارة والعلم وحقوق الإنسان .

ثم ظهرت نظريات ساعدت على انهيار العقيدة الدينيّة ونشر الإلحاد فى أوروبا ، كمنظريّة تشارلس داروين ( ١٨٠٩ - ١٨٨٢ ) التى أودعها كتابه « أصل الأنواع » وهى نظرية تفترض أن الكائنات العضوية على اختلاف أنواعها ترجع إلى أصل واحد مشترك ، وأنها تدرجت من الأخط إلى الأرقى حسب قانون « الانتقاء الطبيعي وبقاء الأنسب » وقد أدّى هذا إلى تحسن نوعى مستمر نتج عنه أنواع جديدة راقية كالقردة ، ثم إلى نوع أرقى وهو الإنسان ، ونظريّة فرويد ( ١٨٥٦ - ١٩٣٩ ) التى تعزو تصرفات الإنسان إلى تطور الغريزة الجنسيّة منذ الطفولة الأولى ، وتبدو فى المراحل الفميّة والشرجيّة والقضيبيّة حتى تصل إلى بعد فترة كمون إلى المرحلة التناسليّة أثناء المراهقة ، والترقف فى أى مرحلة من هذه المراحل هو الذى ينشأ عنه الأمراض النفسيّة والعقلية ، أو عقدة أوديب كما يسمونها ، ونظريّة كارل ماركس ( ١٨١٨ - ١٨٨٣ ) وصديقه فرديريك أنجلز ( ١٨٢٠ - ١٨٩٥ ) وقد صدر المنشور الشيوعى سنة ١٨٤٨ ، وأصدر كارل ماركس الجزء الأول من كتاب « رأس المال » سنة ١٨٦٧ ، وأخرج أنجلز بعد وفاة صديقه الجزأين : الثانى والثالث ، ويعتبر « رأس المال » إنجيل الشيوعيّة المعاصرة ، وأطلق على هذا المذهب اسم الاشتراكيّة العلميّة ، وعلى مبادئه قامت الثورة الروسية الماركسيّة سنة ١٩١٧

بزعامة لينين ( ١٨٧٠ - ١٩٢٤ ) وقالت في الدين : إنه خرافة ، وإنه مُخَدَّرٌ للشعوب .

وهكذا انتهى أمر العالم الغربي بشقيه : الرأسمالي والشيوعي إلى عزل الدين عن الحياة ، بل إلى العداء للدين ، وأصبحت العلمانية في الحياة الغربية الدين الجديد لها ، وإن كان الغرب الرأسمالي أقام حياته السياسية على النظام الديمقراطي المطلق ، أى الحكم الذى تكون فيه السلطة حقاً لجميع أفراد الشعب ، أما الغرب الشيوعي فإنه أقام حياته السياسية على سيادة الطبقة العاملة ، أو ما يسمى ديكتاتورية البروليتاريا .

ويتضح من ذلك العرض أن العلمانية التى يوحى لفظها بأن لها صلة بالعلم ، لا علاقة لها بالعلم ، وإنما علاقتها قائمة بالدين ، على أساس عزل الدين عن الحياة (١) .

\*\*\*

كيف غزت العلمانية العالم الإسلامى :

غزت العلمانية الغربية العالم الإسلامى بوسائل شتى تآزرت فيما بينها ، ملتقبة عند أهدافها المشتركة للوصول إلى غايتها ، وكان أكثرها تأثيراً ما يأتى :

الاستعمار :

عاش العالم فى عصور التاريخ المتعاقبة منقسماً إلى شطرين ؛ أحدهما : دول ذات سيادة وقوة وسلطان ، والآخر : دول وقعت فى قبضة الأولى ، فأذاقتها لباس الذل والازمان والحرف ، وهذه الظاهرة وما يصاحبها من علاقة هى التى تُسمى بالاستعمار .

(١) انظر « مذاهب فكرية معاصرة » ، ص ٤٤٥

وهذه التسمية لا تُعبر عن المعنى اللغوي الصحيح ، فانه يقال فى اللغة : استعمره فى المكان : إذا جعله يعمره ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (١) ، والتعبير الصحيح لهذا أن يسمى بالاستعباد ، فكثيراً ما كانت تسمى الدول المستعمرة ( بكسر الميم ) الدول المستعمرة ( بفتحها ) ممتلكات ، ممتلكات بريطانية ، وممتلكات فرنسية ، وممتلكات بلجيكية ، وممتلكات إيطالية ... وهكذا ، والعلاقة بين الطرفين لا يمكن وصفها إلا بأنها كعلاقة الحر بالعبد ، والسيد بالمسود ، فالشعب المالك يتمتع بحريته ، ويسير وفق إرادته ، والمملوك مُسير لا مُخير ، ليس له من الإرادة فى تصريف أمره ، وتكييف مجرى حياته ، إلا بمقدار ما يسمح له سيده المالك المهيمن (٢) .

ويتفاوت نفوذ هذا الاستعمار ، فقد يودى إلى التسلط التام على الأرض وسكانها ، وقد تُترك الأرض لسكانها يستغلونها على أن يكون هذا الاستغلال وفق إرادة الدولة صاحبة السيادة . وقد يكتفى المستعمر أحياناً بحق الاحتلال العسكرى ، أو حق « التدخل » فى طائفة من الشؤون يرى من الواجب أن تسيّر وفقاً لمصلحته ، وإن خالفت مصلحة السكان الأصليين .

والعالم يتقدم بمرور الزمن ، وتتقدم معه أساليب الاستعمار نفسها ، فلكل دولة مذهبها فيه ، فى القهر والغلبة ، أو الاستغلال المادى ، أو التوجيه السياسى ، أو المسخ العقدى الفكرى ، والدول التى تحظى بميزات أوفر فى الموقع الجغرافى ، والتعداد السكانى ، ودرجة الثقافة والتعليم ، والقوة الاقتصادية ، والمركز المالى ، والفائض الزراعى والصناعى ، والتفوق الحربى - هذه الدول التى تسمى بالدول الكبرى ، وعددها لا يتجاوز أصابع اليد ، ولكنها تتحكم فى مصير سائر دول العالم ، وبينها يُبرم الأمر فى المحافل الدولية ،

(١) هود : ٦١

(٢) انظر : الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، للدكتور محمد عوض محمد ، ص ١٢

أو فى التفاهم المباشر ، على الصّعيد السياسى فى القضايا العالمىة بالمناطق الساخنة ، وقد تختلف فيما بينها ، ولكن الأمر لا يخرج من يدها باستخدام حق « الثبوتو » (١) .

وقد يرتدى الاستعمار ثوب زور باسم الحماية أو الانتداب أو الوصاية ، أو التعاون المشترك ، أو المصالح المتبادلة ، أو البعثات الإبتشارىة ، دون أن يكون له وجود عسكرى .

وكان نصيب العالم العربى من ذلك نصيباً كبيراً مع ما له من ميراث حضارى عريق ، إذ نشبت فيه مخالب الدول الاستعمارىة وفعلت به الأفاعيل ، وكان نصيب إفريقيا أسوأ حالاً .

والنظرة الاستعمارىة إلى العالم نظرة قائمة بعبدة كل البعد عن أدنى المعانى الإنسانىة ، جاء فى كتاب منتسكيو الفرنسى المشهور : « إذا طُلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبداً فإننى أقول : إن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين ، لم ترُ بدأً من أن تستعبد شعوب إفريقيا لكى تستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة ، والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البشرة من أخصم القدم إلى قمة الرأس ، وأنفها أفطس فطساً شنيعاً ، بحيث يكاد أن يكون من المستحيل أن ترثى لها ، ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى - وهو ذو الحكمة السامىة - قد وضع روحاً - وعلى الأخص روحاً طيبة - فى داخل جسم حالك السواد » (٢) .

فأى سخرىة تزرى بالإنسان كهذه السخرىة فى نظر المستعمرىن الذين يرون أن الشعوب السوداء أو الحمراء لا روح لها ، بل كان قادة الدين فى مراحل

---

(١) حق « الثبوتو » هو حق الاعتراض فى الأمم المتحدة على أى قرار ، وهذا الحق لكل من الولايات المتحدة ، الاتحاد السوڤييتى ، بريطانيا ، فرنسا ، الصين .

(٢) انظر : الاستعمار والمذاهب الاستعمارىة ، للدكتور محمد عوض محمد ، ص ٣٧

الاستعمار الأولى بأمريكا الشمالية يشيرون إلى الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان ، وكانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل .

لذا استقى الدكتور محمد عوض محمد من هذا النص وغيره تعريفاً مطوّلاً للاستعمار يُوضّح أطماعه ومقاصده ووسائله ، فقال : « هو العمل أو مجموعة الأعمال التي من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بواسطة دولة أو جماعة منظمّة من الناس ، على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم ، أو على سكان تلك الأرض ، أو على الأرض والسكان في آن واحد » (١) .

ونص في هذا التعريف على الدولة أو جماعة منظمّة من الناس حتى يشمل الاستعمار تلك الشركات التي تكوّنت في العصور الحديثة ، مثل شركة الهند الشرقية ، وشركة إفريقية الشرقية ، وتسلمت على مرافق البلاد ، وكذا سائر الشركات والمؤسسات التي تكون على غرارها .

وقد اتسع نفوذ الاستعمار الغربي في أنحاء الدنيا ، وطوّق البلاد الإسلامية ، وسيطر عليها منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وواصل زحفه نحو الأطراف إلى أوائل القرن العشرين ، وتقاسمت الدول الاستعمارية فيما بينها العالم الإسلامي .

فخضع لسلطان بريطانيا : شرق آسيا « اتحاد ماليزيا » سنة ١٨٦٧ ، والهند - حيث كانت دولة المغول المسلمة سنة ١٨٥٧ ، والكويت سنة ١٨٦٠ ، والإمارات والبحرين وقطر سنة ١٨٢٠ ، ومحمية عدن سنة ١٨٣٩ ، ومصر سنة ١٨٨٢ ، والسودان سنة ١٨٩٩ ، والأردن وفلسطين سنة ١٩١٧ ، والعراق سنة ١٩٢٠ ، ونيجريا وغانا وسيراليون .

وخضع لسلطان فرنسا : الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وتونس سنة ١٨٨١ ،

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨ - ٣٩

وسوريا ولبنان سنة ١٩٢٠ ، وفرنسا وأسبانيا : المغرب سنة ١٩١٢ ، كما خضع لفرنسا : السنغال ، ومالي ، وموريتانيا ، وساحل العاج ، وغينيا ، والكاميرون ، وإفريقية الوسطى ، وتشاد .

وخضع لسلطان هولندا : أندونيسيا سنة ١٧٥٠ .

وخضع لسلطان روسيا : بلاد تركستان : بخارى وسمرقند وطشقند ، سنة ١٨٦٨ .

وخضع لسلطان إيطاليا : ليبيا سنة ١٩١١ .

وخضع لسلطان البرتغال ثم بريطانيا : كينيا .

وتقاسمت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا الصومال بأقسامه وأثيوبيا (١) .

وهكذا قسّم الاستعمار الغربى تركة الإسلام ، ولا سيما حين آل بناء الخلافة العثمانية للسقوط ، ثم سقطت وقامت الدولة العثمانية فى تركيا على يد مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٩٢٣ وألغيت الخلافة سنة ١٩٢٤ ، ففضى على الحياة الإسلامية مظهراً وحقبة . شكلاً وموضوعاً ، وترسم خطى الحياة الشريفة شجراً بشير ، وذراعاً بذراع ، وسار على دربه الذين صنعهم الاستعمار على عينه ، وانبهروا بعلمانيته ، فأخذ بيدهم إلى سُدّة الحكم فى بلاد إسلامية عديدة .

واعتمد الاستعمار فى تمزيق شمل العالم الإسلامى على إضعاف روابطه الدينية والفكرية والتعبدية والسلوكية .

نشرت جريدة « المؤيد » سنة ١٣١٧ هـ ترجمة لمقال كتبه « هانونو » المستشرق الفرنسى ومستشار وزارة الاستعمار الفرنسية ، يصف فيه المسلمين

(١) انظر : أطلس تاريخ الإسلام ، حسين مؤنس ، ص ٤٠ - ٤١

وعقيدتهم ، ويضع المقترحات الضرورية فى نظره لتوجيه سياسة فرنسا فى  
مستعمراتها الإفريقية الإسلامية تحت العنوان التالى : « قد أصبحنا اليوم إزاء  
الإسلام والمسألة الإسلامية » ومما جاء فى هذا المقال :

« وخلاصة القول إن جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة  
واحدة ، بها يديرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم إلى الوجة التى يبتغونها ،  
وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذى تتصل به أشياء تتحرك بحركته ، وتسكن  
بسكونه ، ومتى اقتربوا من الكعبة : من البيت الحرام ، من زمزم الذى ينبع منه  
الماء المقدس ، من الحجر الأسود المحاط بإطار من فضة ، من الركن الذى يقولون  
عنه إنه سرُّ العالم ، وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التى استحسنتهم على  
مبارحة بلادهم فى أقصى مدى من العالم للفوز بجوار الخالق فى بيته الحرام ،  
اشتعلت جذوة الحمية الدينية فى أفئدتهم ، فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفاً  
.. وتقدمهم الإمام مستفتحاً العبادة بقوله : « بسم الله » فيعم السكوت والسكون  
وينشران أجنحتهما على عشرات الألوف من المصلين فى تلك الصفوف ، ويملاً  
الخشوع قلوبهم ، ثم يقولون بصوت واحد : « الله أكبر » ثم تعنو جباههم بعد  
ذلك قائلين : « الله أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة » (١) .

وتتذرع الدول الاستعمارية بمبررات مغرضة ، كالحرص على هيبة الدولة ، أو نشر  
المدنية والحضارة ، أو معالجة تزايد السكان ، أو الضرورات العسكرية لحماية  
المصالح والدفاع عنها ، وقاموس الاستعمار الحديث ملئ بالشعارات التى  
يحملها فى ألفاظ برأقة حتى لا بوغر نفوس الشعوب بالكراهية والبغضاء .

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، الدكتور محمد البهى ، ص ٣٣ ،  
ط . دار الفكر .

ويقمع الاستعمار أى حركة وطنية بوحشية ضارية ، ينفر منها الطبع الإنسانى ، فإن الضوارى تفتك وتقتل بدافع الجوع أو رد العدوان ، أما إنسان الاستعمار المتحضر فيقتل ويفتك من أجل السيطرة والتحكم فى الإقليم وفى سكانه .

كما يسعى الاستعمار إلى تدمير الشعوب التى تسقط فى يده بأساليب الماكرة ، فضلاً عن جرائمه الوحشية .

فقد يغزو الشعوب بالسموم الفتاكة التى تقضى على أجسام الأمة وعقولها وأموالها ، وتقودها إلى الدمار والويل ، وهذا ما يسمى بحرب الأفيون ، أو حرب المخدرات ، وتجار المخدرات فى بعض الدول أقوى نفوذاً من نفوذ الدولة ، مدججون بالسلاح ، محصنون فى مراكزهم ، لا تجرؤ الشرطة على اقتحام أوكارهم ، ويسلك اليهود بالتعاون مع عملائهم هذا المسلك فى حرب الدول العربية بخاصة .

وقد يغزو الشعوب بثقافته التى تُمجّد فى الغرب وحضارته وترفعه إلى الذروة ، فتفتتن الشعوب بهذا ، وترى أن سبيل الحضارة والتقدم والرقى تقليد الغرب ومحاكاته تقليد القردة ومحاكاة البيغاوات ، ويقترن هذا دائماً بتوهين المقومات الاعتقادية والعلمية والحضارية فى البلد المغلوب على أمره ، كى ينسلخ من ماضيه وتراثه .

ويصطحب هذا فى البلاد الإسلامية بنقل الأنظمة والقوانين الغربية ، وتعطيل تطبيق الأحكام الشرعية ، بل بالهجوم عليها ووصفها بالقسوة والوحشية ، وإهدار كرامة الإنسان ، وعدم ملاءمتها للمدنية الحديثة .

وما دخل الاستعمار بلداً إسلامياً إلا انتهى أمره بهذه النتيجة ، فى التنخلى عن الشريعة الإسلامية ، وتصويرها بأنها شريعة جامدة لا تساير تطور العصر .

وأول عمل قام به الإنجليز فى الهند إلغاء الشريعة الإسلامية ، وأول عمل قام به نابليون فى مصر هو تعطيل الشريعة وإحلال القانون الفرنسى محلها ، وأول

عمل قام به صنيعة الاستعمار « أتاتورك » فى تركيا هو إلغاء الشريعة الإسلامية ثم إعلان تركيا دولة لا دينية .

\*\*\*

### ● الاستعمار والمبشرون :

وكانت طلائع المبشرين تسبق الاستعمار لتُعبّد له الطريق ، وتتضافر جهودها معه ، مرتدية حُلّة من الخدمات العامة الطبية والتعليمية والاجتماعية ، ولا تفتأ تبث أفكارها ضد الإسلام وكتابه ورسوله ، وتلتقى إرساليات التبشير من أنحاء العالم الإسلامى فى مؤتمرات دولية تتدارس فيها مشكلاتها وقضاياها ، وتخطط لكل بلد بما يلائمه حتى يقع فى شركها لقمة مستساغة ، ولكنها جميعاً تلتقى فى غايتها بإخراج المسلمين بعامة والعرب منهم بخاصة من دينهم ، يقول المبشر بالكراف : « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن العربى يتدرج فى سبيل الحضارة التى لم يُبعده عنها إلا محمد وكتابه » (١) .

ويشق التنصير طريقه بوسائل عدة منذ القرن الثالث عشر الهجرى ( التاسع عشر الميلادى ) فلم يعد أمره قاصراً على الإقناع الفردى والوعظ العام :

فمن وسائله : العلاج الطبى ، وقد تكوّنت جمعيات طبية فى أوروبا وأمريكا تختص بتأهيل الأطباء والممرضين للعمل فى مراكز التنصير ، فكثرت الإرساليات الطبية التبشيرية فى العالم الإسلامى ، تنشئ المشافى ، وتعالج المرضى ، وتُغنى الفقراء من نفقات العلاج ، وتظهر روح التسامح والشفقة لتنفذ إلى القلوب .

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ص ٣٧

ومن وسائله : التعليم فى مراحلہ الأولى ، الحضانة وما بعدها ، فى مستوى منظم نظيف ، يغرئ أولياء الأمور بتعليم أبنائهم وبناتهم فى مدارس التنصير ، ويأتى الغزو الفكرى عن طريق المناهج وأعضاء هيئة التدريس .

ومن وسائله : المطبوعات من النشرات والكتب والصحف التى تغمز فى الإسلام ، وتظهر محاسن المسيحية ، وتمجد دولها الغربية ، وتوجد مؤسسات نصرانية متخصصة تقوم على نشر هذه الكتب والمؤلفات .

ومن وسائله : الدور الاجتماعية التى تقوم على رعاية اليتامى والعجزة والفقراء ، وتقدم لهم ما يحتاجون إليه من عون كالغذاء والكساء والإيواء والمال (١) .

ويستخدم الاستعمار عملاءه فى السلطة لضرب العمل الإسلامى ، وإلغاء مؤسساته ، وكان من توجيه « زويمر » للمبشرين قوله : « تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها » (٢) .

وقلماً تجد بلداً إسلامياً ظهر فيه قائد عبقرى فذ قاوم الاستعمار بحركة إسلامية واعية إلا حورب حرباً شعواء .

ففى ليبيا تولى « عمر المختار » ( ١٨٦٠ - ١٩٣١ ) قيادة حركة المقاومة الإسلامية ضد الإيطاليين ، فأخذوا يطارده ، ثم قدموه لمحاكمة صورية حُكم عليه فيها بالشنق .

وفى المغرب قاوم « عبد الكريم الخطابى » ( ١٨٨٢ - ١٩٦٣ ) الاستعمار الأسبانى بمنطقة المغرب الأسبانية ، وهزم جيوشه ، وتقدم إلى المنطقة الفرنسية ، ولكنهم استطاعوا السيطرة عليه ، ثم نُفى ، وهرب ، ولجأ إلى مصر ، وظل فيها حتى توفى .

(١) انظر « ملامح عن النشاط التنصيرى فى الوطن العربى » ، د . إبراهيم عكاشة ، ص ٢٦

وما بعدها . (٢) الغارة على العالم الإسلامى ، ص ٨٠ .

وفى الجزائر هَبُّ المَجاهدِ « عبد القادر الجزائري » ( ١٨٠٧ - ١٨٨٣ )  
فقاوَمَ الاحتلالَ الفرنسي للجزائر ، وقاتلَ الفرنسيين خمسة عشر عاماً ، ثم تمكنوا  
من القبض عليه ونفيه ، واستقر به الأمر فى دمشق حتى توفى .

وفى مصر قام الداعية الإسلامى المشهور « حسن البنا » ( ١٩٠٦ -  
١٩٤٩ ) بتأسيس جماعة الإخوان المسلمين ، فربى جيلاً مجاهداً اشتركت  
كتائبه فى حرب فلسطين ، وانتشرت دعوته فى دول كثيرة ، وأقبل عليه  
الشباب المسلم ، فدبرت القوى الاستعمارية له مؤامرة القضاء عليه ، فقُتِلَ  
شهيداً برصاص البغى ، ولا تزال حركته تحت مطرقة العملاء .

وانقشعت سحابة الاستعمار عن البلاد الإسلامية التى استعمرها ، ولكنه ترك  
وراءه ركاباً من الفكر العلمانى فى أذهان الطبقة المثقفة والقيادات التى  
أمسكت بزمام الأمور بعده فى السياسة والاقتصاد والإعلام والتربية والتعليم ،  
فظلت القوانين الوضعية سائدة فى البلاد ، واستمرت الشريعة الإسلامية بمنأى  
عن واقع الحياة ، وذاق الذين يطالبون بتحكيمها ويلات العذاب ، قتلاً وسجناً  
وتشريداً ، فى ظل التحرر والاستقلال ، ولكن هيهات لهم أن يصيبوا من الحركة  
الإسلامية مقتلاً .

❖ ❖ ❖

#### ● الاستشراق :

تعنى كلمة « الاستشراق » ذلك النشاط العلمى الذى اهتم بالدراسات  
الشرقية من قِبَلِ علماء الغرب الذين سمو لهذا العمل بالمستشرقين .

وتتناول الدراسات الشرقية : القرآن ، والسُّنة ، واللُّغة العربية ، والتاريخ  
والحضارة الإسلامية ، وما ينبغ فيه المسلمون من فلسفة وطب ورياضيات  
وفلك ... إلخ .

ولا يُعرف على وجه التحديد متى بدأت عناية الغرب بالدراسات الشرقية ،  
ويذكر بعض الباحثين أن احتكاك الغرب ببلاد الأندلس المسلمة أدى إلى إعجاب  
نفر من الرهبان الغربيين بما وصل إليه المسلمون من معرفة ، فتتلمذوا على يد  
العلماء المسلمين بالأندلس ، ثم عادوا إلى بلادهم فأسسوا المعاهد للدراسات  
العربية ، ونشروا ثقافة العرب المسلمين ومؤلفاتهم .

ثم جاء الغزو الغربى فاستعمر العالم الإسلامى ، واحتل بلاده ، وأطلق يد  
علمائه للإغارة على المخطوطات العربية ، بالسرقه تارة ، وبالشراء تارة أخرى ،  
واستولى هؤلاء على نوادر المخطوطات ، ونقلوها إلى مكتبات أوروبا ، فزادت  
العناية بالدراسات الشرقية ، ولا سيما الإسلام وتاريخه ، وحضارته ، وآداب  
لغته ، والتمسوا مطاعن فى الإسلام لتحريف حقائقه ، وتشويه جماله ، وطمس  
معالم حضارته ، والاستعانة بترائيه العلمى والأدبى ، وحرصوا على تحطيم روح  
المسلمين العالية ، فعمدوا إلى الأساليب التى تبعث على الوهن النفسى ، وتشبط  
العزائم ، حتى يرمى المسلمون فى أحضان الغرب ، وينقادوا لحضارته صاغرين .

وهدف المستشرقون إلى أمور كثيرة صوبوا إليها سهام حقدهم :

( أ ) التشكيك بصحة رسالة نبينا محمد ﷺ ومصدرها الإلهى ، فأنكروا  
أن يكون نبينا يُوحى إليه ، وعزوا الحالة التى كانت تأتیه عند نزول الوحى  
إلى « صرَع » كان ينتابه ، وجحدوا أن يكون القرآن كتاباً مُنزلاً من عند الله ،  
وزعموا أن ما فيه من حقائق علمية وتاريخية وأخلاقية مستمدة من النصرانية ،  
تلقاها محمد ﷺ من حداد رومى كان يعمل بمكة . -

وهذا هو الزعم الذى زعمه المشركون ، وردّه القرآن عليهم فى قوله تعالى :  
﴿ وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ  
أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

(١) النحل : ١٠٣

( ب ) التشكيك فى صحة الحديث النبوى لما عُرفَ فيه من أحاديث موضوعة اخترعتها الفرق الإسلامية المتناحرة ، وأن الأمويين استطاعوا أن يستغلوا الإمام الزهري لصالحهم .

وابن شهاب الزهري وأترابه من العلماء لم يكونوا لعبة فى يد حاكم ، بل عُرفَ عنهم من التقوى والاعتزاز بالإسلام ما يؤكد أن أحداً منهم لم يتخذ مطيئة لهوى سلطان ، يكتسب به رضاه ، ويبوء بسخط الله .

( جـ ) التشكيك فى قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور العلمى ، فهى لغة فقيرة مجدبة ، لا تستوعب المصطلحات العلمية ، ولا تتسع لصياغة العلوم .  
والعربية هى أغنى لغات الدنيا بأبنيتها الاشتقاقية ، وأساليب بيانها ، ووجوه دلالتها ، وقد وسعت العلوم كلها يوم أن كان الغرب لا يعرف شيئاً منها .

( د ) التشكيك فى قيمة تراثنا الحضارى ، وإنكار المقومات التاريخية والثقافية فى ماضى أمتنا المجيدة ، والاستخفاف بها ، فالحضارة الإسلامية - كما يزعمون - منقولة عن حضارة الرومان ، وليس فيها ابتكار ولا إبداع ، وإنما يحاكي تراثها الفلسفة الرومانية ، وعلومها ، وقيمها .

ومقومات أمتنا واقع سجله التاريخ لنا ، والحضارة ميراث مشترك بين البشرية كلها ، أسهمت فيه كل أمة بنصيبها ، والإسلام دين شامل يدعو إلى العلم والمعرفة ، ويمسك بعناصر الحضارة كلها ، ويوجهها وينميها فى ظل شريعته ، وقد أحرز علماء الإسلام قصب السبق فى كل حقل من حقول المعرفة ، فابتكروا وأبدعوا ، وأشادوا الحضارة الإسلامية السامقة التى استقى منها الغرب معارفه ، حين عبرت إليه عن طريق القسطنطينية شرقاً والأندلس غرباً .

( هـ ) بعث روح الفرقة لتمزيق شمل الأمة الإسلامية ، بإحياء القوميات ، وإثارة الخلافات والنعرات التى قضى عليها الإسلام واستعاض عنها برابطة

العقيدة ، وجعل من المسلمين أمة واحدة ، لأن وحدة العالم الإسلامى بعامة والعربى منه بخاصة أكبر خطر يهدد الغرب ، يقول لورانس براون : « إذا اتحد المسلمون فى إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، وأمکن أن يصبحوا نعمة له أيضاً ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير » (١) .

وقد آخى الإسلام بين أبناء أمته : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٢) .  
وندد بالعصبيّة وجعلها رسول الله ﷺ من دعوى الجاهلية .

وسلك المستشرقون لتحقيق أهدافهم وسائل كثيرة :

( أ ) ألقوا الكتب فى موضوعات مختلفة عن الإسلام ، منتحلين صفات العلماء والباحثين ، ولكنهم نفتوا سمومهم فيها ، فحرّفوا النصوص ، وشوّهوا الوقائع التاريخية ، ووضعوا مقدمات فاسدة ، واستنتجوا منها استنتاجات باطلهم ، وأردفوا هذه الكتب بالمجلات « مجلة شؤون الشرق الأوسط » ويصدرها المستشرقون الأمريكيون ، ومجلة « العالم الإسلامى » التى أنشأها المستشرق الأمريكى « صمويل زويمر » .

( ب ) وتسللوا إلى الصحف المحلية فى البلاد الإسلامية ، باستخدام تلاميذهم ، أو شراء النفوس الضعيفة المتأثرة بهم ، مستعينين فى ذلك بإرساليات التبشير التى تمهد الطريق لهم ، فتنتشر المسيحية ، وتوطد دعائم الاستعمار .

جاء فى كتاب « التبشير والاستعمار » للدكتورين : عمر فروخ ومصطفى الخالدى ، فى إحدى الوثائق التاريخية عن نشاط المستشرقين والمبشرين لخدمة الاستعمار : « يعلن المبشرون أنهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، ص ٥٢٥

(٢) الحجرات : ١٠ .

للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا فى أى بلد إسلامى آخر ، لقد ظهرت مقالات كثيرة فى عدد من الصحف المصرية ، إما مأجورة فى أكثر الأحيان ، أو بلا أجر فى أحوال نادرة » (١) .

والفرق بين التبشير والاستشراق ، أن الاستشراق أخذ صورة « البحث » وادعى لبحثه « الطابع العلمى الأكاديمى » .

أما التبشير .. فإن دعوته لا تتجاوز حدود مظاهر العقلية العامة ، وهى العقلية الشعبية .

واستخدم الاستشراق الكتاب والمقال فى المجلات العلمية ، والتدريس فى الجامعات ، والمناقشة فى المؤتمرات العلمية العامة .

أما التبشير فقد سلك طريق التعليم المدرسى فى دور الحضانة ، ورياض الأطفال ، والمراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية للذكور والإناث على السواء ، كما سلك سبيل العمل الخيرى الظاهرى ، فى المستشفيات ، ودور الضيافة ، والملاجئ للكبار ، ودور الأيتام (٢) .

( ج ) وعقد المستشرقون - ويعقدون - المؤتمرات التى تعالج القضايا الإسلامية والتقريب بين المسيحية والإسلام ، وتبحث فى فلسفة الأديان ، وتقارن بينها ، وتطرح هذه الموضوعات من زوايا النظرة الاستشراقية ، بما يحقق أهدافها ، وينشر رسالتها .

ولو وقف الأمر عند المستشرقين الغربيين لهان شأنه ، ولكن أهداف الاستشراق يقوم عليها المستغربون من أبناء جلدتنا ، الذين يدينون بالعبودية

---

(١) انظر : « الاستشراق والمستشرقون » للدكتور مصطفى السباعى ، ص ٢٩ ، وانظر

« التبشير والاستعمار » ص ٢٠٧ .

(٢) انظر « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » ص ٥٢١

الفكرية للغرب ، ممن تعلموا على يد المستشرقين من رجال الكهنوت فى أقسام الدراسات الشرقية بجامعة الغرب ، أو على يد موظفى الدوائر الاستعمارية والمؤسسات الصهيونية ، فاطمأنت نفوسهم إلى أن أفكار المستشرقين هى الأفكار العلمية الدقيقة الجديرة بالبحث والاهتمام .

ولسنا نحمد جهود بعض المستشرقين العلمية ، الذين كرسوا حياتهم لدراسة العلوم الإسلامية ، ولم تؤثر عليهم دوافع الاستشراق ، مثل « توماس أرنولد » فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » و « استانلى لين بول » صاحب كتاب « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى » الذى رتبته لفييف من المستشرقين ، وصاحب كتاب « مفتاح كنوز السنّة » .

ومن هؤلاء من أنار الله بصيرتهم وأسلم ، مثل « ليوبولد فايس » الذى تسمى باسم « محمد أسد » صاحب كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » وكتاب « الطريق إلى مكة » ، و « دينيه » الذى تسمى باسم « ناصر الدين دينيه » وألف مع عالم جزائرى كتاباً عن سيرة الرسول ﷺ .

ومن أخطر المستشرقين المعاصرين :

« ج . أ . ربرى » إنجليزى ، معروف بالتعصب ضد الإسلام والمسلمين ، ومن كتبه « الإسلام اليوم » .

و « الفرد جيوم » إنجليزى معاصر ، ومن كتبه « الإسلام » .

و « ه . ا . ر . جى » أكبر مستشرقى إنجلترا المعاصرين ، وكان عضواً فى المجمع اللغوى بمصر ، ومن كتبه « الاتجاهات الحديثة فى الإسلام » .

و « جولد زيهر » مجرى ، عرّف بعدائه للإسلام ، ويخطورة كتاباته عنه ، ومن كتبه « مذاهب التفسير الإسلامى » .

و « ماكدونال » أميركى ، من أشد المتعصبين ضد الإسلام والمسلمين ،  
ومن كتبه « تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية فى الإسلام » .  
و « لوى ماسنيون » أكبر مستشرقى فرنسا المعاصرين ، ومن كتبه « الحلاج  
الصوفى الشهيد فى الإسلام » .  
و « د . س . مرجليوت » إنجليزى ، متعصب ضد الإسلام ، ومن كتبه  
« التطورات المبكرة فى الإسلام » .  
و « يوسف شاخت » ألمانى ، متعصب ضد الإسلام والمسلمين ، وأشهر  
كتبه « أصول الفقه الإسلامى » .  
و « عزيز عطية سوربال » مصرى مسيحي ، والآن يدرس بإحدى جامعات  
أمريكا ، وله كتاب عن الحروب الصليبية .  
و « فيليب حتى » لبنانى مسيحي تأمرى ، كان رئيساً لقسم الدراسات  
الشرقية بجامعة برتستون بأمريكا ، من ألد أعداء الإسلام ، ومن كتبه « تاريخ  
العرب » .  
ومن أشهر المؤسسات التعليمية التى تقامس التبشير وتقوم بوظيفة  
الاستشراق « الجامعة اليسوعية » فى لبنان ، و « الجامعة الأمريكية » بالقاهرة ،  
و « الجامعة الأمريكية » ببيروت ، و « الجامعة الأمريكية » فى إستنبول ،  
و « الكلية الفرنسية » فى لاهور .  
والمستشرقون يتناولون الإسلام باسم البحث العلمى ، وروح النقد النزيه ،  
والحوار الهادف لإضعاف القيم الإسلامية ، والطعن فى عقيدة التوحيد نفسها ،  
وإظهار المسيحية فى صورة أفضل .  
يزعمون أن العقيدة الإسلامية تجعل الله فى ذروة العظمة والعلو ، وتجعل  
الإنسان فى حضيض الضعف والوهن ، إذ أنها تصف الله بالوحدانية والتفرد

بالخلق والتدبير والتشريع ، وتصف الناس بأنهم عبيد له لا يملكون من أمر الحياة شيئاً ، يخضعون لقضائه وقَدَره ، أما النصرانية فترفع مرتبة الإنسان وتُقربّه إلى الذات الإلهية ، بما فطره الله عليه من إيمان وإرادة ، وبما آتاه من أعمال صالحة ، إذ أن الإله الأب أوجد الإله الابن ، واتصل الاثنان بصلة هي روح القدس ، فيكون يسوع المسيح إلهاً وبَشَراً ، وهذا يحمل الناس على إتيان الأعمال التي تُقربهم إلى الله ، حيث الوساطة بينهم وبين ذاته العلية موصولة ، فى حين أن المسلمين تجملهم ديانتهم كمن يهوى فى الفضاء ، بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ، ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة بالله الأحد الذى هو مستودع الآمال ، ولفظة الإسلام معناها الإستسلام المطلق لإرادة الله .

وهذا تمويه وتضليل ، فإن عقيدة التوحيد مزية الإسلام ، وهى آية بيّنة على أنه الرسالة التى تُفسّر العلاقة بين الله والكون تفسيراً صحيحاً ، وأنها المنهج السليم والطريق الوحيد إلى رفع شأن الإنسان وتكريمه بكمال عبوديته لله وتجرده له ، لأن صاحب هذه العقيدة لا يخضع فى حياته لغير الله ، ولا يتوجّه فى طلب العون إلا إلى الله ، وهو يقرأ كل يوم فى ركعات فرائض صلاته سبع عشرة مرة على الأقل : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) .

ولا يقف المستشرقون عند إبعاد المسلمين عن دينهم ، وإنما يحرصون على استمرار هذا ، فيخشون من الدعوة التى تملأ أقطار الأرض بضرورة العودة إلى كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ ، وإقامة الحياة الإسلامية على هذين الأصلين العظيمين ، وهى دعوة نادى بها شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتابعه فيها غيره من المسلمين المصلحين بعده ، للقضاء على الانحراف العَقْدِي ، والركود الفقهي ، وتوجيه الأمة الإسلامية إلى صفاء العقيدة والرجوع إلى ما كانت عليه ، قبل أن تلتفها افتراضات الجدل العقيم الذى خاضه علماء الكلام ، وإلى أصول الشريعة

---

(١) الفاتحة : د

التي استنبط منها فقهاء الإسلام ما يضبط ألوان النشاط البشري في كل عصر ، قبل أن تُصاب المهوبة الفقهية بالفتور والكسل ، وتركن إلى التقليد والتعليق .

وهذه الدعوة هي نبراس اليقظة الإسلامية المعاصرة التي ترجع الناس إلى ما كان عليه سلف هذه الأمة في العقيدة والشريعة ، ولكن المستشرقين عندما وقفوا على حقيقة هذه الدعوة ، ورأوا أثرها الإيجابي المشرق في مستقبل حياة الأمة الإسلامية لو سارت في طريقها الصحيح ، مالوا بها عن هذا الطريق ، وقالوا في شرحها : إن معنى العودة إلى القرآن والسنة وإلى عصر الصحابة الأول ، رضوان الله عليهم هو الرجوع إلى الحياة البدائية التي كانت لأمة الإسلام الأولى ، وأنكروا على كل من يدعو إلى هذا المفهوم في الإصلاح ، إذ الإصلاح عندهم هو التطور في الأخذ بأساليب المدنية الحديثة ، والقوانين المعاصرة ، وأسلوب الحكم الغربي ، وهذا هو ما يردده العلمانيون في الأمة الإسلامية ، فتطبيق الشريعة الإسلامية تخلف ورجعية ، وعودة إلى الحياة البدائية (١) .

ويعمد بعض المستشرقين إلى القول بأن تطبيق الشريعة الإسلامية أمر بعيد المنال ، لأن نزعتها مثالية لا يمكن أن يكون لها واقع عملي في الحياة ، فمصدرها الأم هو القرآن الكريم ، والقرآن وحى إلهي له معايير ثابتة ، التي لا تقبل التغيير إلى الأبد ، والحياة متجددة متغيرة ، وهذا يجعل الشريعة الإسلامية عاجزة عن الوفاء بحاجات الناس التي لا بد فيها من النزعة الواقعية لتقدير الأمور ، ولذا كانت الحاجة ماسة إلى قواعد قانونية واقعية لفض المنازعات ، بعيداً عن المفاهيم المثالية الدقيقة للشريعة الإسلامية .

« والصحيح أن مثالية أحكام الشريعة الإسلامية لا تعنى عدم صلاحيتها للتطبيق بحال من الأحوال ، والواقع الذي مضى عليه العمل في العالم الإسلامي

(١) انظر « الفكر الإسلامي الحديث » ص ٥٢ - ٦٠ ، ورد الدكتور محمد البهي على

المستشرق « رينان » .

كله إلى دخول الاستعمار الغربى بلاد الإسلام ينقض هذه الدعوى ، والعمل من وقت لآخر فى عدد من بلدان الإسلام للحكم بالشريعة الإسلامية وإصدار قوانين جديدة مستمدة من أحكامها مبنية على مدوناتها الفقهية ، واستمرار العمل بها حتى اليوم فى المملكة العربية السعودية وغيرها من الدول الإسلامية ينقضها كذلك .

وإنما معنى المثالية هو نزوع هذه الأحكام الشرعية الإسلامية بالإنسان إلى العلو فوق الشهوات والنزوات ، وتحكيم المعايير الصحيحة للعقل والعدل بدلاً من تحكيم الهوى والغرض ، فأحكام الإسلام - جملة ترمى إلى تخلق المرء بخُلق الإنسان الفاضل ، إن لم يستطع الوصول إلى خُلق الإنسان الكامل ، فهذا معنى للمثالية نثبته ولا ننفيه <sup>(١)</sup> .

ويكمن خطر الاستشراق فى أنه يرتدى لباس العلم ، ويقتحم جامعاته ، ويتصل بالطبقة المثقفة ، ويحارب الإسلام حرباً مقنَّعة بوسائل الخداع والتمويه ، وقد وجد ركائز له فى كثير من البلاد الإسلامية ، ووقع فى حباله نفر ليس بالقليل من الذين تسلَّموا مناصب القيادة والتوجيه .

\* \* \*

#### ● المؤتمرات المشبوهة للدراسات الإسلامية :

تسعى كل أمة إلى معالجة قضاياها ، والبحث عن أفضل السُّبل لحل مشاكلها ، وفى مقدمة ذلك القضايا والمشاكل الحيوية التى تتصل بكيان حياتها ، وحقيقة وجودها ، ولا سيما ما يتصل بالعقيدة والدين والتشريع .

---

(١) انظر « مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية » الجزء الأول ، بحث الدكتور محمد سليم العوا ، فى مناقشة دراسة المستشرق « نويل ج . كولسون » للفقه الإسلامى ، ص ٢٥٣ وما بعدها .

فلا ينبغي لنا - نحن المسلمين - أن نتوقع من الدول غير الإسلامية ذات الأطماع فى بلادنا أن تعطى قضايانا أهمية حتى تعقد الندوات والمؤتمرات لدراستها وبحثها ، ما لم يكن وراء ذلك مآرب آخر .

والعداء السافر الذى يكشف عن أنيابه يبعث على الحذر منه والوقوف فى وجهه ، ويستنفذ طاقات الأمة لصد خطره ، ولكنه إذا كان مغلفاً بشعارات براءة استطاع أن يعمل مستخفياً بأساليب الدس والمداهنة ، حتى يصيب سهمه الغرض الذى يريد .

وإذا تسنى لخصوم الإسلام أن يجدوا من أبناء جلدتنا من يستجيب لهم ، ويتعاون معهم فى خططهم كان الأمر أشد خطورة وأبلغ أثراً .

فلا غرابة أن نرى الدول الكبرى التى لا تدين بالإسلام تبدي اهتمامها بالشريعة الإسلامية ، وتعقد لها المؤتمرات ، وتدعو لها الباحثين ، وتستقطب بعض المسلمين للمشاركة فيها ، كى تظهر بمظهر البحث العلمى النزيه ، ثم تنفث ما تنفثه من سموم بعد ذلك ، للتشكيك فى صلاحية الشريعة الإسلامية والانحراف بها عن مسارها .

ومن أمثلة ذلك المؤتمر الذى عُقدَ بأمريكا فى صيف سنة ١٩٥٣ ، واشتركت فى الدعوة إليه جامعة برتستون ومكتبة الكونغرس ، وقد شهدته عدد من المسلمين فى شتى بقاع العالم الإسلامى ، من أندونيسيا والهند والباكستان وإيران والعراق وسوريا ولبنان ومصر ، وحُشدَ له عدد مماثل من الأمريكيين المشتغلين بالدراسات الإسلامية .

ألقيت بحوث المؤتمر ، ونوقشت ، وتم اختيار عدد من هذه البحوث لنشره فى كتاب ، وعُهدَ بالإشراف على إخراجها وترجمة ما كُتِبَ منها بالإنجليزية إلى الأستاذ محمد خلف الله عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية آنذاك ، ثم قامت مؤسسة فرانكلين بطبع الكتاب ونشره .

وأكثر الذين اشتركوا في المؤتمر من الأمريكان قسس معروفون بنشاطهم التنصيري ، قضوا وقتاً طويلاً في الشرق الإسلامي وخبروا أحواله وسبروا غوره ، ومنهم عدد كبير تولى التدريس في الجامعة الأمريكية في بيروت أو في القاهرة .

والذي يتصفح أبحاث الكتاب يرى ما فيها من دس ، في التشكيك بأهميات العقيدة ، وزعزعة الثقة في صلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق أو محاصرتها لتكون قاصرة على العبادات .

ولا يجد بعض المؤقرين غضاضة في أن يفصح عن رأيه في ضرورة إعادة النظر في الإسلام وتطويره ، على أن يقوم بهذا نفر من المسلمين بعد أن تضعف ثقتهم في دينهم ، يقول أحدهم في بحثه مُعرباً عن ذلك : « إن عدم التمكين للعقيدة من ناحية ، ومحاصرتها من ناحية أخرى - هو أصلح تمهيد لإقناع المسلمين بتطوير قِيم الإسلام ، فهذا التطوير لا بد - لكى يُثمر ثمرته المرجوة - أن يحدث بأيدي المسلمين أنفسهم ، وهم لا يفعلونه إلا إذا ضعف يقينهم بالإسلام ، فاعتقدوا أنه يتعارض مع حاجات الحياة من ناحية ، أو تعودوا إهماله وعدم التقيد بالتزام قواعده في شؤون الحياة من ناحية أخرى ، اقتناعاً منهم بأن دائرته لا تتجاوز شؤون العبادات ، ولا تتعداها إلى المعاملات » (١) .

وهذه العبارة تكشف عن نوايا المؤقرين ، فيما يبذلونه من جهد لما يسمونه تطوير الشريعة الإسلامية ، فإن الهدف الأساسي من هذا هو محاصرة الدين ، وتضييق دائرة نفوذه وقصرها على شؤون العبادة ، دون المعاملات التي يقوم عليها تنظيم المجتمع ، وبناء الأمة ، وتحقيق هذا يكون بأيدي نفر من المسلمين الذين تهتز قِيم الإسلام في نفوسهم ، ويقتنعون بأن شريعته لا تفي بحاجات العصر ، ولا تلبى مطالب الحياة ، فيعملون على حصره في الجانب التعبدي -

---

(١) حصوننا مهددة من داخلها ، في أوكار الهدامين ، للدكتور محمد محمد حسين ، ص ٢٧

وهو المفهوم العلماني للدين في الغرب - ويقصونه عن نواحي الحياة التطبيقية في المعاملات التي تشمل ما يُعرف في المفهوم الغربي بالقانون المدني ، والقانون الجنائي .

ويدرك الناقد البصير ما حققته هذه الأفكار من نجاح فيما وصلت إليه أكثر البلاد الإسلامية من تعطيل تطبيق أحكام الشريعة ، وحصر الدين في الصلة بين العبد وربه .

\* \* \*

#### ● الابتعاث :

لقد شهد العالم ألواناً من الحضارات في القديم والحديث ، ولم يشهد حضارة مثلى لبناء مجتمع أفضل كحضارة الإسلام .

فالحضارة في مفهومها الأخص هي مجموعة العلوم والمعارف والأنظمة التي تساعد الإنسانية على الرقي والتقدم ، وهذا يشمل جوانب المعارف المختلفة التي تُسهم في بناء الحياة الإنسانية كالثقافة الدينية والعلوم الكونية ، والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

والحضارة بهذا المعنى وُلِدَت بميلاد الإنسان الأول ، حيث أحس بحاجته إلى الطعام والمشرب والمأوى ، واستشعر ضرورة ما يستره به عورته ، وضرورة تفاهمه مع غيره ، وأخذت هذه الحاجات تنمو في حسه ، وتستيقظ في شعوره ، حتى تطوّرت أساليبها ووسائلها من طور إلى طور .

وقد أودع الله في الإنسان غريزة حب الاستطلاع ، وهذه الغريزة تبعث في نفسه روح المعرفة ، وتحمله على البحث تطلعاً إلى إدراك المجهول ، وكلما أدرك شيئاً بحث فيما وراءه ، وهكذا تزداد خبراته وتجاربه ، ثم يستخدم هذه التجارب وتلك الخبرات فيما يحقق له مزيداً من الراحة والمتعة والرفاه .

وهذه الحضارة تتوارثها الأجيال ، يرثها اللاحق عن السابق ، وما من أمة من الأمم فى عصر من العصور إلا ولها تأثيرها على هذا المد الحضارى المتوارث ، تارة بالنماء والازدهار ، وتارة بالجمود والتوقف ، وأخرى بالانحراف وسوء التوجيه .

وقد عَنِىَ الإسلام بالعلم ، ودعا إليه ، وشجّع على تحصيله ، وأكبر قدوة فى ذلك رسولنا محمد ﷺ ، فيما رواه أهل السير ، إذ حرص على تعليم الصحابة الكتابة ، وفرض على كل أسير من أسرى بدر يجيد القراءة والكتابة ولا يستطيع أن يفدى نفسه أن يُعَلِّم عشرة من أبناء المسلمين ، وهذا معناه أن تعليم عشرة يعدل رقبة .

وَحَثَّ الإسلام على تعلم لغة الآخرين وعلومهم لتحقيق المقاصد الشرعية .

روى البخارى تعليقاً ، والبغوى وأبو بعلى موصولاً عن أبى الزناد عن خارجة ابن زيد عن أبيه قال : « أتى بى النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم مقدمه المدينة ، فقيل : هذا من بنى النجار ، وقد قرأ سبع عشرة سورة ، فقرأت عليه ، فأعجبه ذلك ، فقال : « تعلم كتاب يهود ، فإنى ما آمنهم على كتابى » ففعلت ، فما مضى لى نصف شهر حتى حدقته ، فكننتُ أكتب له إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأتُ له » .

وفى مسند عبد بن حميد عن زيد بن ثابت قال : « قال لى النبى ﷺ : « إنى أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا ، فتعلم السريانية ، فتعلمتها فى سبعة عشر يوماً » (١) .

وإذا كان العلم لا وطن له ، فنقل العلم من الحضارات كلها هو المعهود فى توارث المعرفة ، وذلك بإحدى الطرق الآتية :

(١) انظر : كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة » لابن حجر ، ومعه كتاب « الاستيعاب »

لابن عبد البر ، ج ١ ص ٥٤٣

١ - الترجمة : وهى النقل من لغة إلى أخرى ، وهذه الطريق ارتضاها المسلمون الأوائل بعد احتكاكهم بالثقافة اليونانية والثقافة الفارسية ، فنقلوا العلوم العقلية كالفلسفة ، والهندسة ، والفلك ، والطب ، والكيمياء ، والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا ، نقلوها إلى اللّغة العربية ، وكان خالد بن يزيد بن معاوية أول مَنْ عَنَى بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية ، فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين فى مصر من مدرسة الإسكندرية وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيراً من الكتب اليونانية والقبطية ، وترجموا كتب جالينوس فى الطب (١) .

وعنَى المسلمون بنشر الثقافة الطبية بترجمة ما خلفه الأقدمون وأسسوا المعاهد العلمية لتخريج الأطباء ، وكان الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ( ٨٦ - ٩٦ هـ ) أول مَنْ بنى البيمارستان فى الإسلام ، وجعل فيه الأطباء ، وأجرى عليهم الأرزاق .

فلما جاءت الدولة العباسية ازداد اشتغال المسلمين بالعلوم العقلية ، واتجه الخلفاء العباسيون إلى معرفة علوم الفرس واليونان ، فعنَى أبو جعفر المنصور بترجمة الكتب ، ونقل له حنين بن إسحاق بعض كتب أبقراط وجالينوس فى الطب ، كما نقل ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من البهلوية ، وترجم كتاب إقليدس فى الهندسة ، وترجم الحسن بن سهل وغيره كتباً أخرى .

ثم زادت العناية بترجمة الكتب فى عهد هارون الرشيد بعد أن وقع فى حوزته بعض المدن الرومية الكبرى ، فأمر بترجمة ما عشر عليه المسلمون من كتب اليونان ، كما نشطت حركة الترجمة بتشجيع البرامكة للمترجمين وإدراار الأرزاق عليهم .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، للدكتور حسن إبراهيم حسن ،

وفى عهد المأمون قويت حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية ولا سيما اليونانية والفارسية ، فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنّفات الفريدة فى الفلسفة والهندسة والطب والفلك ونحوها .

ولم تكن العناية بالترجمة مقصورة على المأمون ، بل عني جماعة من ذوى اليسار فى عهده بنقل كثير من الكتب إلى العربية ، ومن هؤلاء : محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاعر ، الذين أنفقوا الأموال الضخمة فى الحصول على كتب الرياضيات ، وأنفذوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم ، فجاءهم بطرائف الكتب ، وفرائد المصنّفات .

وظهر فى عهد المأمون طائفة من جهابذة الرياضيين من أمثال : محمد بن موسى الخوارزمى الذى يُعدُّ أول من درس الجبر دراسة منظّمة وجعله علماً منفصلاً عن الحساب .

واشتهر من المترجمين فى الإسلام أربعة هم : حنين بن إسحاق ، ويعقوب الكندى ، وثابت بن قُرّة الحرّانى ، ومحمد بن عمر بن الفرغان الطبرى .

واشتهر من المسلمين علماء كثيرون : كجابر بن حيان فى الكيمياء ، وحجاج ابن أرتاة فى الهندسة ، والحسن بن سهل وجعفر بن عمر البلخى فى علم النجوم ، وابن بختيشوع وابن ماسويه وحنين بن إسحاق ومحمد بن زكريا الرازى وابن النفيس فى الطب ، والحسن بن الهيثم فى الفيزياء ، وأبى الريحان البيرونى ومحمد بن جابر البتانى وأولاد شاعر فى الرياضيات والفلك .

وهذه الطريق - طريق الترجمة - هى أفضل الطرق لنقل العلوم ، لأنها تتيح فرصة الاختيار من العلوم المترجمة ، وتجعلنا فى مأمن من الانزلاق وراء الأخطاء السابقة ، أو الانحرافات الاعتقادية والفكرية ، فنأخذ الصالح وندع ما سواه .

وفى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تغط فى سُبَات الجهل ، وترسف فى أغلال الظلم ، وكانت تنصب المشانق لقتل العلماء الذين يخرجون على سلطان الكنيسة - فى هذا الوقت الذى يسمى بالقرون الوسطى ، كانت الحضارة الإسلامية فى أوج عظمتها ، تزهر بعلومها ، ويشع منها نور المعرفة فى كل مصر .

وما كان للغرب أن ينهض من كَبوته ، ويستيقظ من غفلته لولا احتكاكه بالحضارة الإسلامية عن طريق القسطنطينية وصقلية والحروب الصليبية شرقاً ، وعن طريق بلاد الأندلس غرباً .

٢ - استقدام العلماء : فهذه طريقة أخرى لنقل العلوم ، أن تستقدم الدولة من الدول التى نبغت فى علومٍ بعينها عدداً من العلماء لتدريس هذه العلوم فى بلادها ، وهذا أمر معهود فى الحياة العلمية حتى اليوم ، فأكثر جامعات العالم تستقدم للتدريس فيها من البلاد الأجنبية خيرة العلماء المتميزين الذين لهم شهرة علمية عالمية ، وهذا النهج يلى النهج الأول - الترجمة - فى الأمن من المخاطر والتخوف من الغزو الفكرى ، لأن هؤلاء العلماء يعيشون بين ظهرانينا ، تحت سمعنا وبصرنا ، نرقب أحوالهم وننتقى منهم أصلحهم ، ونُقِّوم المعوج منهم أو نكون فى حلٍّ من أن نستغنى عنه ونستبدل به خيراً منه .

ويكمن الخطر فى هذه الطريق من طرق نقل المعرفة إذا تُرك الأمر للأساتذة الأجانب وأرخى لهم العنان فى وضع مناهج التعليم وألوان النشاط الثقافى والاجتماعى ، فإن الوافدين فى هذه الحالة سوف لا يألو أحدهم جهداً فى تغريب مؤسساتنا التعليمية ، وهذا ما حصل فى تركيا قبل حركة أتاتورك ، حيث أنشئت عام ١٨٤٥ جامعة فى تركيا على الطراز الغربى ، هى « دار الفنون » وفى كلية الحقوق التابعة لها بدأ تدريس مواد ليس لها علاقة بتركيا المسلمة ، مثل القانون الرومانى ، والقانون الفرنسى ، على أيدي أساتذة غير مسلمين ،

للأخذ بهذه القوانين وإحلالها محل الفقه الإسلامى ، ولو كانت الدراسة على وجه المقارنة لإثبات سيادة الفقه الإسلامى وتفوقه لكان هذا أمراً مبرراً<sup>(١)</sup> .

٣ - الابتعاث : هذه هى الطريقة الثالثة لنقل العلوم ، وهى طريقة محفوفة بالمخاطر ، حيث تبعث الدولة طلابها للدراسة العلمية التخصصية فى المعاهد والجامعات الغربية ، وهذا معهود مألوف منذ زمن طويل .

عندما تولى « محمد على » ( ١٧٦٩ - ١٨٤٩ ) ولاية مصر ( ١٨٠٥ - ١٨٤٩ ) استعان بالأجانب والفرنسيين منهم خاصة فى تنظيم الجيش والبحرية والرى والتعليم ، وأرسل كثيراً من البعثات العلمية .

كان على رأس باكورة هذا الابتعاث « رفاة الطهطاوى » ( ١٨٠١ - ١٨٧٣ ) ويسمى شيخ المترجمين المصريين فى مطلع النهضة الحديثة ، وهو أزهري النشأة ، عُين إماماً لأول بعثة تعليمية أرسلت إلى فرنسا ، وبعد أن عاد عُين مديراً لمدرسة الترجمة ( الألسن فيما بعد ) وكتب وصفاً لرحلته إلى فرنسا « تخليص الإبريز فى تليخيص باريز » شرح فيه النظم السياسية والاجتماعية الحديثة مفتتناً بها ، داعياً إلى الأخذ بما فيها .

يقول مُثنياً على الدستور الفرنسى « الشرطة » : « فيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل ... ومعنى الشرطة فى اللُغة اللاتينية ورقة ، ثم تسومح فيها فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيّدة ، فلنذكره لك ، وإن كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ولا فى سنّة رسول الله ﷺ ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحُكّام والرعايا ، لذلك عمرت بلادهم ، وكثرت

(١) انظر : الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم ، أبحاث ووقائع اللقاء الرابع لمنظمة الندوة

العالمية للشباب الإسلامى ، ج ٢ ص ٢٥ .

مصارفهم ، وتراكم بناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيها من يشكو ظملاً  
أبداً ، والعدل أساس العمران « (١) .

وجاء بعد رفاة الطهطاوى تلميذه « محمد عثمان جلال » ( ١٨٢٩ -  
١٨٩٨ ) فترجم المؤلفات الفرنسية الأدبية ذات الشهرة ، مثل : بول وفرجينى ،  
وقصص لاڤونتين ، ومولير ، ليصوغ الأدب العربى صياغة غربية ، وصادف  
هذا هوئى لدى الخديوى إسماعيل فقال : إن مصر أصبحت قطعة من أوروبا .

وكانت حركة التغريب الأولى فرنسية الاتجاه ، فلما احتل الإنجليز مصر  
أصبحت حركة التغريب إنجليزية الاتجاه .

تتابع ابتعاث الطلاب من البلاد الإسلامية إلى الدول الغربية الرأسمالية  
والاشتراكية - ولا يزال - فتربى على يد الغربيين صفوة الشباب ، وعادوا بفكر  
ممسوخ ، ونظرة جديدة إلى الحياة .

فالطالب فى سن المراهقة ومقتبل الشباب يخرج من مجتمعه الإسلامى  
المحافظ ، ليستقبل مجتمعاً غريباً آخر ، يختلف فى مفاهيمه وقيمه وأخلاقه  
اختلافاً بيناً عن مجتمعه ، فينبهر بالجديد ، ويقع بصره على مظاهر الحضارة  
الغربية بفتنتها ومغرياتها ، ويصير فى حيرة من أمره ، يُقدّم رجلاً ويؤخر أخرى ، وليس  
من السهل عليه أن ينسلخ من بيئته ويندمج أو يذوب فى بيئة جديدة طفرة واحدة .

ويحتاج هذا الطالب المبتعث قبل أن يشرع فى دراسته العلمية إلى أن يتقن  
اللغة الأجنبية ، لغة الدراسة ، وهذا يستلزم منه أن يقضى فترة دراسية فى  
اللغة لمدة عام على الأقل ، والمدارس أو المعاهد التى تقوم بهذا التأهيل مدارس  
مختلطة ، يلتقى فيها الفتیان والفتيات ، فى قاعة الدراسة ، وفى صالات  
الطعام ، وفى الأندية الرياضية ، وفى المسبح ، وفى المساكن الداخلية ...

---

(١) تخلص الإبريز فى تخلص باريز ، ص ١٤ .

فكيف يكون حال شاب مسلم ينتقل فجأة إلى هذا الجو المشحون بطاقة الغريزة الجنسية المتقدة التي يزكيها هذا الاختلاط مع الأناقة والجمال فيتطير شررها ؟ إنه سيقع فى صراع نفسى مرير .

وكثيراً ما يسكن الطالب مع أسرة أجنبية رغبة فى تعلم اللّغة ليتحدث مع أفرادها ، ويساير أمور معيشتها ، فيبرد فى حسه الشعور بالانتماء الإسلامى ولا يلبث حتى يألف عادات وتقاليد الغرب .

والدراسة فى الجامعات على غرار الدراسة فى مدارس اللّغات ، فهذه تسلمه لتلك .

والدهشة التى تغمر الطالب من إنجازات الحضارة الغربية تملك عليه بُه ، وتأخذ بتلابيبه ، لينخرط فى سلكها مذهولاً مفتوناً .

ولا نستطيع أن نقول : إن هذا هو شأن كل طالب يدرس فى الغرب ، فهناك طُلاب يتمتعون بحصانة إسلامية عالية ، وبقظة فكرية واعية ، واعتزاز بالإسلام وأمتهم ، يُفرّقون بين العلم والسلوك الحضارى ، وهم طُلاب علم ، فما لهم وللمفاهيم الغربية والفكر الغربى ونظرته إلى الكون والإنسان والحياة ، ولكن هذا النفر من الدارسين هم نُخبة ممتازة قليلة العدد ، تستعلى بقيمها الإسلامية الرفيعة ، وتكوّن لنفسها روابط تربطها بالعقيدة والخُلُق فى ألوان من النشاط الدينى والثقافى والاجتماعى .

وإذا عاد الطُلاب المبتعثون بعد استكمال دراستهم ، وقد لقحوا بالفكر العلمانى ، وتولوا أعمالهم فى مجالات الحياة ، يَمّم كل منهم وجهه شطر الغرب ، لينسج على منواله ، ويصوغ الحياة فى بلده صياغة غريبة .

لقد هاله ما وصل اليه الغرب من رقى حضارى بعد أن فصل الدين عن الحياة ، ووقر فى نفسه أن هذه الصورة هى التى يجب أن يتصورها لمستقبل

أمتة الحضارى ، وإذا فاته أن يُعبّر عن ذلك بالتعبير الكُنسى : « دع ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر » فإنه يُعبّر بعبارة أخرى تفيد معناها : « الدين لله ، والوطن للجميع » .

\* \* \*

### ● سيطرة العلمانية على نواحي الحياة :

لقد تسللت العلمانية إلى جوانب الحياة الإسلامية ، بل سيطرت عليها .

### ● علمانية الحكم :

نشأ الاتجاه العلمانى فى الحكم بالبلاد الإسلامية أول الأمر بدافع من الرغبة فى التجديد والإصلاح فى فترة الركود الفقهي عندما أصدر السلطان عبد المجيد سنة ١٢٥٥ هـ ( ١٨٣٩ م ) مرسوماً بتكوين لجنة لدراسة الحالة التشريعية فى البلاد ، وصياغة فقه المعاملات فى مواد على نمط القانون المدنى ، وهو ما خرج باسم « مجلة الأحكام العدلية » .

والتنظيم فى ذاته أمر مرغوب فيه ، ولكن الصياغة القانونية تهى الأذهان لقبول القانون الوضعى نفسه ، وهو ما استغله المثقفون ثقافة غربية .

واستطاع حفنة من يهود الدومنة بعد ذلك أن يتخذوا بعض المسلمين أداة لتدمير الخلافة العثمانية انتقاماً من السلطان عبد الحميد الذى لم يستجب لمطالبهم ، حتى تقوم دولة علمانية على النمط الأوروبى ، فكانت جمعية الاتحاد والترقى ، وتركيا الفتاة ، وهى حركة علمانية قادها اليهود ومولها أغنياؤهم ، وتمكنت فى زمن قصير من إقصاء السلطان عبد الحميد عن الخلافة سنة ١٣٢٥ هـ ( ١٩٠٩ م ) ، وتبنت هذه الحركة الدعوة إلى القومية الطورانية .

كان من الضرورى أن يُهَيَأ بطل يتزعم الموقف لنجاح المخطط ، فظهر مصطفى كمال أتاتورك فى ساحة الأحداث وعزل السلطان محمد السادس ، وأقام الدولة العلمانية التركية سنة ١٩٢٣ .

ثم ألغى الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤ ، واضطهد علماء المسلمين أبشع اضطهاد ، وأغلق كثيراً من المساجد ، وحرّم الأذان باللّغة العربية ، واستبدل بالحروف العربية التي استخدمها الأتراك قرابة ألف سنة الحروف اللاتينية ، وفرض لبس القبعة الأوروبية ، وأكره النساء على تقليد المرأة الغربية ، واستبدل بالشرعية الإسلامية القوانين الوضعية .

وإذا كانت مصر قد اتجهت اتجاهاً غربياً من أيام محمد علي ، فإن سياسة الخديوى إسماعيل الفاشلة أغرقت البلاد فى الديون الأجنبية ، وأدت إلى تدخل بريطانيا واحتلالها لمصر .

أخذ النفوذ الإنجليزي يتسع ويزداد مستهدفاً القضاء على الشريعة الإسلامية ، مستعيناً ببعض العلماء المتحررين المعجبين بالغرب ، فنشأ مجلس شورى القوانين ، ثم حلت القوانين الوضعية محل الشريعة الإسلامية التي لم يبق لها مجال للتطبيق إلا فى نظام الأسرة الذى يُعرف بالأحوال الشخصية .

وزاد الأمر ضغناً على إبالة بكتاب أصدره عالم أزهري هو « على عبد الرازق » بعنوان « الإسلام وأصول الحكم » استقى فيه أفكاره من المستشرقين والمبشرين والعلمانيين ، ولوى أعناق النصوص ليبرهن على أن الإسلام لا صلة له بنظام الحكم ، وأن ما جاء فيه متصلاً بالحكم كالذى نُقلَ عن عيسى ابن مريم الذى أمر بأن يعطى ما لقيصر لقيصر ، والذى جاء فى أحاديث النبى ﷺ عن الإمامة والخلافة والبيعة لا يدل على شئ أكثر مما دلّ عليه كلام المسيح حينما ذكر بعض الأحكام الشرعية عن حكومة قيصر ، أما ما قاله الفقهاء عن الإمامة والخلافة فلا يعدو أن يكون إرشاداً إلى حاجة الرعية فى صلاحها إلى الحكومة فى أى صورة كانت ولا يعنى هذا الصورة المقيدة الخاصة باسم الحكم الإسلامى .

ثم نضح إناء آخر بمثل هذا المحتوى ، فظهر كتاب « خالد محمد خالد » : « من هنا نبدأ » ، مستهدفاً ما قصده على عبد الرازق من قبل .

وبمثل تلك النهاية فى تركيا ومصر كانت نهاية البلاد الإسلامية التى غزاها الاستعمار فى إقصاء الشريعة الإسلامية وإحلال القوانين الوضعية محلها ، وهذه هى مأساة تعطيل تطبيق شريعة الإسلام (١) .

\* \* \*

### ● علمانية التعليم والثقافة :

اقتترنت الحياة العلمية فى الإسلام بالمسجد ، وارتكزت دعائمها على علوم اللُّغة العربية ، وعلوم الشريعة الإسلامية ، ثم اتسع نطاق العلوم بعد عصر الترجمة فشملت الدراسة العلوم الكونية .

وكان الأهر منذ تأسيسه يدرس فى حلقاته المكتظة ، الفلك ، والجبر ، والهندسة ، والطب ، كما يدرس الفقه والنحو والحديث والتفسير سواءً بسواء ، والجامع الأزهر هو أكبر جامعة إسلامية وإن لم يكن أقدمها .

فمن قبل كان جامع الزيتونة فى تونس سنة ٧٣٢ م ، ولكنه لم يصبح جامعة يزدهر فيها التعليم إلا فى القرن الثالث عشر الميلادى .

كما شُيِّدَ جامع القرويين سنة ٨٥٩ م ليكون مركزاً للتعليم فى القطاع الغربى من مدينة فاس بالمغرب ، حيث كان يسكن المهاجرون القيروانيون ، وميلاً مع التخفيف انقلب هذا الاسم إلى القرويين .

وحين غزا الفرنسيون مصر لضرب الإنجليز فى الشرق بقيادة نابليون سنة ١٧٩٨ تفتحت الأذهان إلى ضرورة الحاجة للعلوم العصرية الحديثة ، وكان الأهر جديراً باستيعاب هذه العلوم .

ولكن « محمد على » الذى تبنى فكرة تحديث مصر بدأ يُضَيِّقُ الخناق على التعليم الدينى متمثلاً فى الكتابات وفى الأزهر بتقاليده العلمية التى جعلت منه

---

(١) انظر : العلمانية ص ٥٨٢ وما بعدها .

جامعة من أقدم جامعات العالم وأكثرها شهرة ورسوخاً . وقد انسحب تضييق  
« محمد على » على الأزهر إلى علمائه حتى فى مخصصاتهم وأرزاقهم .

وحيثما أسس المدارس الحديثة بمناهجها ضيق الخناق على علوم اللغة العربية  
والعلوم الدينية ، وصار تدريس اللغة الأجنبية والتاريخ الأوروبى والحضارة  
الغربية يحظى بدرجة عالية من الاهتمام ، وأصبح الطالب يعرف عن نابليون  
بونابرت وعن نلسون القائد الإنجليزى الذى حطم الأسطول الفرنسى أكثر  
مما يعرف عن قواد المسلمين الأوائل الذين نشروا الإسلام ووسطوا نفوذه على  
أكبر إمبراطوريتين كانتا موجودتين آنذاك ، الفرس والروم (١) .

وأصبحت المدارس الحديثة هى التى تؤهل طلاب البعثات العلمية التى ترسل  
للدراية فى أوروبا ، وظل الأزهر قاصراً على دراسة الفقه وأصول الدين  
والتوحيد والحديث والتفسير والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق .

واقترنت هذه الازدواجية بالتفاوت الكبير فى مستوى المعيشة والحياة  
والوظيفة بين الأزهر والتعليم الحديث ، وفتح « كرومر » الوزير البريطانى على  
يد « دنلوب » المستشار التعليمى الإنجليزى المدارس الحكومية الكثيرة التى  
تمجد الغرب ومدنيته ، وتُهون من شأن الإسلام وحضارته ، وتناولت الألسن  
على الأزهر للقضاء على القيم الإسلامية والتراث الدينى للأمة .

ونستطيع أن نُقدِّم صورة من هذه الخطة بلسان أحد ساسة الإنجليز المسؤولين ،  
وهو « اللورد لويد » الذى كان مندوباً سامياً فى مصر ، حيث يقول فى كتابه  
« مصر منذ كرومر » الذى ظهر سنة ١٩٣٣ : « إن التعليم الوطنى عندما قدم  
الإنجليز إلى مصر كان فى قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين ،

---

(١) انظر « التفريب فى التعليم فى العالم الإسلامى » للدكتور محمد عبد العليم مرسى ،

والتي كانت أساليبها الجافة القديمة - حسب تعبيره - تقف حاجزاً في طريق أى إصلاح تعليمى ، وكان الطلبة الذين يتخرجون من هذه الجامعة يحملون معهم قدراً عظيماً من غرور التعصب الدينى ، ولا يصيبون إلا قدراً ضئيلاً جداً من مرونة التفكير والتقدير ، فلو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله هو لكانت هذه خطوة جليلة الخطر ، فليس من اليسير أن نتصور أى تقدم ، طالما ظل الأزهر متمسكاً بأساليبه الجامدة ، ولكن إذا بدا أن مثل هذا الأمل غير متيسر تحقيقه ، فحينئذ يصبح الأمل محصوراً فى إصلاح التعليم اللاديني ( المدنى ) الذى يناقش الأزهر ، حتى يُتاح له الانتشار والنجاح ، وعند ذلك سوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين : فيما أن يتطور ، وإما أن يموت ويختفى » (١) .

وقد أثمرت هذه الجهود التى بذلها المستعمرون فى العالم الإسلامى خلال قرن أو أكثر ، وكان ثمرتها مجموعة من علماء المسلمين المتفرجين .

ثم أنشئت الجامعة المصرية ، وتولى إدارتها من ذوى الاتجاه العلمانى « لطفى السيد » ، وأنشئت كلية حقوق لدراسة القوانين الغربية وتولية المتخرجين منها وظيفة القيام على تطبيق هذه القوانين ، وأفرخت هذه الجامعة جامعات أخرى حذوها ، وصار التعليم مختلطاً فى جميع مراحلها ، وأصبحت الأبواب مفتوحة أمام الغزو الثقافى الغربى بفلسفته اللادينية ، ومذاهبه الأدبية ، وأفكاره الإلحادية .

ووسائل الثقافة العامة فى الإعلام المقروء والمسموع والمشاهد تحولت إلى غذاء دائم يدعم العلمانية ، ويدعو إلى التفسخ من الدين .

(١) انظر : حصوننا مهددة من داخلها ، ص ٣٥ ، ٣٦

ففى العالم العربى اقترن مولد الصحافة بحملة « نابليون » على مصر ،  
إذ أصدرت الحملة فى القاهرة جريدتين باللّغة الفرنسية ، وأصدر « محمد على »  
جريدة الوقائع المصرية ، وما زالت تصدر باعتبارها جريدة رسمية ، والذى يطلع  
على تاريخ الصحافة يجد حشداً هائلاً من النصارى والمستغربين والمتعاطفين مع  
تيار التغريب تولى إصدارها ورئاسة تحريرها ، إذ كان رؤاد الصحافة الأوائل :  
أحمد فارس الشدياق ، ورفاعة رافع الطهطاوى ، وأديب إسحاق ، وخليلى  
الخورى ، وبطرس البستاني ، ومحمد عثمان جلال ، وعبد اللّهُ النديم ، وجمال الدين  
الأفغانى ، ومحمد عبده ، ويعقوب صنوع ، وفرح أنطون ، وخليلى مطران .

ومن الصحف التى عمرت طويلاً « الأهرام » لسليم وبشارة تقلا ، وقد  
صدرت سنة ١٨٧٥ ، وما زالت تصدر .

ومن المجلات مجلة « المقطم » ليعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس ،  
صدرت سنة ١٨٨٨ .

ولا نستطيع فى هذه الإشارات أن نسرد الصحف والمجلات والنشرات التى  
تحمل الفكر العلمانى ، ويكفى قراءة هذه الأسماء حتى يتبين لنا النهج التغريبى  
الصحفى ، والمسار الذى سلكه .

والبرامج فى الإعلام المسموع والإعلام المشاهد يغمرها هذا السيل العلمانى  
الجارف .

وانتشر هذا التيار فى أرجاء العالم الإسلامى سوى من عصم اللّهُ بصور  
مشابهة .

وآخر ما أبدعه التغريب فى مجال الأدب هو بدعة « الحداثة » التى يلمع  
بريقها ، ويتباهى بها عبيدها ، وهى مذهب فكرى غربى وكِدَ ونشأ فى الغرب<sup>(١)</sup> .

---

(١) اقرأ فى ذلك كتاب : الحداثة فى ميزان الإسلام ، للأخ عوض بن محمد القرنى ، ط . هجر ،  
واطلع واستمع إلى شريط مسجل للأخ سعيد الغامدى .

ومفهومها يختلف من باحث لآخر ، أهي لون عن حركة الشعر الحر ؟ أم هي قصيدة النثر ؟ أم الإغراب في الخيال ؟ أم الثورة على التقاليد ؟

والحقيقة أن الحداثة أخطر من ذلك بكثير ، فهي اتجاه فكري أشد خطورة من الليبرالية والعلمانية والماركسية وكل ما عرفته البشرية من مذاهب واتجاهات هدامة ، وذلك أنها تتضمن كل هذه المذاهب والاتجاهات . وهي لا تخص مجالات الإبداع الفني أو النقد الأدبي ، ولكنها تعم الحياة الإنسانية في كل مجالاتها المادية والفكرية على السواء .

وقد ارتبطت الحداثة في نشأتها وفي مفهومها بالفكر الغربي ، وهي تعبير عن التحول الحضاري في أوروبا وأمريكا وواقعهما التاريخي ، ولم يعرفها العالم العربي إلا من خلال استيراده الذي لا ينقطع لُنظم الحياة الغربية وأفلام التلفزيون والسينما .. جنباً إلى جنب مع الأسلحة المتطورة ، والوسائل التكنولوجية وأدوات الرفاهية ...

والحداثة بمفهومها الاصطلاحي اتجاه جديد يُشكّل ثورة كاملة على كل ما كان ، وما هو كائن في المجتمع ، ويصفها أحد الباحثين الأوروبيين بأنها زلزلة حضارية عنيفة ، وانقلاب ثقافي شامل (١) .

\* \* \*

#### ● علمانية الحياة الاجتماعية والاقتصادية :

لقد آتت الأمور السابقة أكلها الخبيث في الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالعالم الإسلامي .

فالمرأة - وهي ربة البيت ، ونواة أسرة المجتمع ، كانت تعيش في مجتمع إسلامي محافظ ، تحرص على الحشمة والوقار ، وتنفر من شبك الشر والفساد ،

---

(١) انظر : الحداثة والتراث - للدكتور محمد مصطفى هدارة - مجلة بيار - التي يصدرها

نادى « أبها » الأدبي - العدد الثاني - ١٤٠٩ هـ ( ١٩٨٨ م ) .

اتصلت بنساء الغازين المستعمرين ، وشاهدتهن فى الشوارع بالثياب الكاسية العارية ، يداعبن الرجال ، ويتبخترن فى سيرهن ، فأخذ ثوب الحياء يرق شيئاً فشيئاً ، حتى فشا السفور ، وأصبح أمانة من أمارات التمدن .

وسمعت المرأة المسلمة وشاهدت فى الحفلات والتلفزيون والرقص العارى ، بين النساء والرجال ، يأخذ الرجل بخاصرة المرأة ، ويحملها بين ذراعيه ، فتداعى فى نظرها المعايير الأخلاقية ، وضعفت قيمها .

ولم يقف الأمر عند هذا ، ففى مصر جاء « قاسم أمين » ( ١٨٦٥ - ١٩٠٨ ) وهو وثيق الصلة بمحمد عبده وسعد زغلول ، عائداً من فرنسا بعد أن درس القانون بجامعة مونبيليه ، وتزعم حركة الدفاع عن قضية المرأة العربية ، فدعا إلى سفورها وتعليمها ومشاركتها الرجل فى الحياة العامة ، وعمل على نشر فكرته فى كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » وتتلخص أفكاره فيما يأتى :

١ - أن المرأة مساوية للرجل فى كل شئ .

٢ - أن الانتقاب والتبرقع ليسا من الإسلام ، لا للتعبد ولا للأدب ، بل هما من العادات القديمة السابقة على الإسلام والباقية بعده ، استحسناها المسلمون كسائر العادات الضارة التى تمكنت فى الناس باسم الدين والدين منها براء .

٣ - أن الحجاب ليس عائقاً عن التقدم فحسب بل هو مدعاة للذليلة ، وغطاء للفاحشة فى حين أن الاختلاط يهذب النفس ويميت دوافع الشهوة .

ثم قامت « هدى شعراوى » ( ١٨٧٩ - ١٩٤٧ ) فأسست الاتحاد النسائى المصرى سنة ١٩٢٣ وكانت أول من رفع الحجاب فى القاهرة وطالبت بمساواة

الجنسين فى التعليم وفى الحقوق السياسية ، كما طالبت بتعديل قوانين الطلاق وتعدد الزوجات وحضانة الأولاد ، وسميت حركتها « حركة النهضة النسائية » . وسرت هذه العدوى إلى البلاد العربية الأخرى ، كما انعكس أثرها على العالم الإسلامى بأثره .

والابتداع الأخير فى ذلك نشرته جريدة « المسلمون - العدد ٢٤٣ السنة الخامسة » ، عن مؤتمر نسائى عُقدَ فى نيروبي ، إذ عقدت مجموعة من النسوة العربيات والمسلمات مؤتمراً فى نيروبي للمطالبة بتعدد الأزواج ، وارتداء الرجل للحجاب أسوة بالمرأة ، ونسب المولود إلى الأم بدلاً من الأب . إنه المؤتمر الأضحوكة الذى رأسته الدكتورة نوال السعداوى المصرية ، وأعلن وزير التربية والتعليم العالى فى بلد عربى مسلم فى الأيام الأخيرة الماضية الحرب على الحجاب ، وعلى مادة التربية الإسلامية فى مناهج التعليم الثانوى (١) .

وليس يخاف على أحد ما فى كثير من البلاد الإسلامية من الملاحى الراقصة بلباليها الحمراء ، وقد تجدد شوارع كاملة لهذا الغرض باسم السياحة ، ومورد السائحين ، فأين هذا من المثل المتوارث : « تجوع الحرّة ولا تأكل بشديبها » ؟ وإذا أتيت إلى الجانب الاقتصادى وجدت التعامل الربوى فى ذروته ، فالمصارف ودور الاستثمار المالى على النمط الغربى ، ومنذ صدرت فتوى محمد عبده فى إباحة صندوق التوفير ارتفعت الأصوات لفصل الحياة الاقتصادية بكاملها عن التشريع ، وقال حفىنى ناصف : « إن الربا بفائدة ليس من أنواع الربا المحرّم ، وإن سبب تخلف مصر - كما يزعم فى الماضى - هو عدم فتح بنوك

---

(١) هو وزير تونس محمد الشرفى - اقرأ جريدة المسلمون ، العدد ٢٤٤ ، الجمعة ٧ ربيع الأول سنة ١٤١٠ هـ (٦ أكتوبر ١٩٨٩ م) .

على الطريقة الغربية » ، ثم جاء بعده من شيوخ الأزهر من ردُّ هذه النعمة ،  
وهى حديث الساعة فى هذه الأيام ، ولكنها « شنشنة نعرفها من أخزم » .

وقد تمَّ عزل الشريعة عن المجال الاقتصادى منذ زمن بعيد ، إلا أن المغرضين  
لا يزالون حريصين على اختلاف ما يبرره ، والواقع الاقتصادى التطبيقى يصطدم  
مع النصوص الصريحة فى الإسلام (١) .

\* \* \*

---

(١) انظر العلمانية ، ص ٥٨١